فهرس كتاب « خطيب المدينتين »

﴿ فهرست الصور ﴾

بسم الله القوي

﴿ فاتحة الطبعة الاولى ﴾

« انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم »

تمتاز الديانة المسيحية عن غيرها من الاديان باعلان قداسة الله وعدله وتأثيرها في تصرفات تابعيها لتنطبق على صفات معبودهم . وسيرة المؤمنين هي التي تكون قدوة فصيحة ترشد القوم بلسان بليغ إلى فضل هذه الديانة . فلم يضع الله معارفنا ولا وعظنا ولا تسبيحنا قدوة للآخرين بل سيرتنا وحدها كما قال — «انظروا إلى نهاية سيرتهم »

ولما كانت وقائع التاريخ من أهم العظات وجب على المرء ان يعلمها ليذكر بها ولا سيما التآريخ الشخصية. فاننا نجد في التاريخ كما في الواقع حولنا اننا نميل الى الأشخاص الذين لحياتهم ومبدئهم تأثير على حياتنا ومطابقة لاميالنا فنقتدي بالبار لبره ونبتعد عن الشرير لما وقع به جزاء اشره . فدرس حياة اولئك يعلمنا ما يجب ان نتبعه وما يجب ان نجتنبه فإن ثوابهم وعقابهم كان بذات يد المحبة والعدل التي لا تزال تسوس الكون كما في أيام القدم

وقد قيل —

تلك آثارنا تدل علينا　　　فانظروا بعدنا الى الآثار

وقيل أيضاً —

ومن درى أخبار من قبله　　　أضاف أعماراً الى عمره

واذا تصفحنا الكتب الالهية وجدنا ثلثي صفحاتها تتضمن سيراً شخصية لاشخاص معلومين منهم الابرار ومنهم الاشرار وقد سمح الله لاصفيائه ان يدونوا هذه السير وان يدونوا ما قالوه وما فعلوه لكي يطلع الآخرون على سيرهم ويتعظوا بما عملوه لا سيما تاريخ الابرار التي يجدر بجميع المؤمنين ان يقفوا عليها ليسيروا بموجبها ويرجعوا اليها . ان فيها عبرة للمعتبرين كما قال بولس الرسول « فهذه الامور جميعها اصابتهم مثالاً وكتبت لانذارنا نحن الذين انتهت الينا أواخر الدهور » (١ كو ١٠ : ١١)

هذا ونجد في تاريخ الكنيسة ان كتبة التاريخ اهتموا جداً بسير الاتقياء الصالحين والبررة القديسين الذين ذللوا الصعاب وعانوا المشقات والاتعاب حباً في سيدهم ورغبة في اعلاء منار الكنيسة . أجل وأية فائدة اكبر وأعظم من قراءة تاريخ فضلاء الرجال الذين تبعث سيرتهم في النفوس ميلاً الى الشهامة والمروءة والشرف فيتعلم القارىء كيف ترخص النفوس ويستهان بالارواح في سبيل الحق وكيف يستخف بالموت لدى المدافعة عن العرض والشرف وكيف تحب سكنى القبور على سكنى القصور اذا مست الفضيلة والآداب بسوء

كذا نتعلم من تراجم حياتهم كيف يكون الصدق في العهود والصراحة في القول والذمة في المعاملة . ويجب ان نتعلم من تاريخ حياتهم الصبر في الجهاد والانتظار بالثقة التامة . بل إن ذكراهم تعيد الى النفوس ذكرى حياتهم وشجاعتهم وصالح أعمالهم . ان تاريخ حياتهم محك يمتحن عليه الانسان نفسه فيقيس افعاله على أفعالهم واعمالهم على أعماله (فالتاريخ مرآة الاعمال) ليعرف الناقص نقصه والكامل فضله وجميل عمله بل ان في تاريخ حياتهم عبرة لقوم يعتبرون وعظة للناس يفقهون فطوبى لمن سمع ووعى

وقد نظرت ادارة مطبعة النيل المسيحية إلى هذه الاعتبارات نظرة الاهتمام فرأت ما رأيناه ويراه كل عاقل ان للتاريخ تأثيراً على الآداب والاعمال (والتاريخ يعيد نفسه) فاقترحت على الكتاب أن يسجلوا لها تراجم حياة آباء الكنيسة الذين تعطرت الارجاء بعبير ذكرهم الطيب وتضوعت الآفاق بمسك محبتهم واخلاصهم الحسن لله وللناس

وحيث أن أحدنا — المرحوم القمص منسى يوحنا — قد سبق فالقى محاضرة عن « يوحنا فم الذهب » لذلك عزمنا ان ندرس تاريخ حياته مطولاً بصفة مشتركة . ولا يخفى ان لكلينا ميلاً الى « فم الذهب » يفوق كل ميل ومحبة تزيد عن كل محبة لأبطال الكنيسة الآخرين وكلما ندرس تاريخ حياته يأخذ منا التأثر مأخذاً عظيماً لما احتمله هذا البطل العظيم في سبيل خدمة الحق والفضيلة ولمقدار شجاعته في تأدية شهادته أمام الملوك

ويجد القارىء في آخر الكتاب قائمة باسماء الثقات اصحاب المراجع في موضوع «حياة فم الذهب ومواعظه» انما نذكر هنا ان اول طبعة كاملة كانت تأليف سافيل Savile وهي طبعة جميلة جداً على ان اكبر وأعظم طبعة كانت عمل برنارد مونفوكن (Bernard Montfaucon) الراهب البندكتي الذي صرف في ذلك العمل لا اقل من عشرين سنة من عمره واصدر كتابه في ثلاثة عشر مجلداً عام ١٧١٨ م . وأما المرجع الاصلي فنقول ان الجميع استقوا معلوماتهم من بالاديوس اسقف هلينوبوليس الذي كان صديقاً حميماً لفم الذهب . ثم

وجدنا باللغة العربية — الدر المنتخب في مقالات القديس يوحنا فم الذهب — أعاد طبعه حبيب افندي جرجس لـكنه يختص بالمقالات والمواعظ فلم نجد فيه إلا ثلاث عشرة صفحة في حياة الواعظ العظيم . فعزمنا بمشيئة الله على سد هذا الفراغ . وفضلاً عن تلك الاعتبارات فلا مناص من ادخال حلقة عن «فم الذهب» في سلسلة أبطال كنيسة الله

واذا صادف صنيعنا هذا القبول أمام المولعين بتاريخ الـكنيسة فمن المحتمل ان نتقدم إلى الحلقة التالية في سلسلتنا الطويلة التي تحتوي على اكثر من عشرين حلقة وتـكون كل حلقة عبارة عن تصوير للمدة وللجهة الموصوفتين علاوة على وصفها « لاشخاص الرواية »

وليس في العزم ان يكون ميعاد كل حلقة بحسب (رقمها) في البروجرام كلا بل بالعكس فإن حياة «فم الذهب» هذه في نمرة ١١ في الترتيب التاريخي وفضلاً عن ذلك فيوجد الآن كتاب مهمّ في سيرة اثناسيوس الرسولي ثم نأخذ اوغسطينوس وكبريانوس وغيرهما وهلم جراً

وليلاحظ القارىء اننا سنتجنب التعريض بالاختلافات المذهبية (على قدر الامكان) لـكن العصمة لله وحده . عسى الله ان يوفقنا وينجح مسعانا انه حسبنا ونعم الوكيل ؟

عبد الفادي القاهراني

منسى القمص



(خطيب المدينتين)

هذه احسن صورة لغبطة البطريرك المعظم يوحنا فم الذهب أخذت من ايقونة بالقسطنطينية وقد صارت ملكا لكنيسة شيشستر منذ قرنين أو اكثر

خطيب المدينتين

الباب الاول

في المقدمات

لكل رجل عظيم مواهب منوّعة لكنه يشتهر بواحدة منها لتفوقها وظهورها كالنار على العلم. فما هي موهبة فم الذهب الخصوصية يا ترى؟ لا ريب في انها الخطابة لانه كان «خطيباً قبل كل شيء» ولهذا السبب عينه قد سميناه « خطيب المدينتين » اي انطاكية والقسطنطينية (الاستانة الحالية).

ما هي الصفة التي تختص بها مواعظ يوحنا؟ انها تختص بكونها «عملية» اكثر منها تعليمية أو فلسفية والباعث على جعلها عملية انما كان حالة المسيحية في عصره.

اجل. ان العالم الروماني كان غائصاً في أوحال الشر والاثم ولم يلبث متلطخاً بها حتى بزغت شمس البر والشفاء في أجنحتها وأنارت العالم القديم ولكن الشمس المشرقة لم تلبث اكثر من ثلاثة قرون حتى احتجبت خلف غيوم متجمعة من روح العالمية والاستبداد غير أن سحابة الصيف مهما طال امدها لا تلبث حتى تنقشع وذلك بظهور بعض رجال الله الاتقياء والعلماء وامثال فم الذهب وغيره فهؤلاء اخذوا يعملون على تبديد تلك الظلمات وعنهم اخذ الخلف حتى ظهرت الشمس مرة اخرى لتنير الكون بلمعان العلم الانجيلي الذهبي فتحركت لذلك كل ذرة في الوجود.

ولا يمكننا تحديد قيمة ذلك النور العظيم ما لم نوجه نظرنا الى مبلغ تلك الظلمات التي كانت مستولية على السكون في ذلك الوقت فانها كانت عظيمة جداً ولذلك يقتضي لها نور عظيم يمكن به ازالتها وعلى هذا كان النور عظيماً ولذلك غطى على تلك الظلمة غير انه لم ينبثق مرة واحدة بل ظهر تدريجاً كما يفعل نور الصباح في تبديد ظلمة الليل . وسيظهر باكثر تفصيل في المقالات الآتية مبلغ تلك القوة الغشومة التي حاربها فم الذهب بسلاح الحق .

مقال (١) مساوىء الاتحاد بين الكنيسة والدولة

قال البحاثة الدكتور شاف (Dr. Schaff) صاحب كتاب «تاريخ الكنيسة» .

اعتقد ان لاتحاد الكنيسة بالدولة مساوىء جمة قد بزغت بعد عصر الامبراطور قسطنطين ولا تزال آثارها باقية الى الآن في كنائس اوربا وهذه المساوىء ادت بالكنيسة الى الجنوح للعالميات فانها بعد ان ضمت تحت جناحيها كل سكان الامبراطورية الرومانية أصبحت مأوى لجميع طبقات الشعب أو بعبارة اخرى كنيسة العالم أجمع وباتت المسيحية من جراء ذلك مجرد مظهر في الرسميات وتزايد عدد المرائين والمنتمين اليها بظواهرهم فقط وذاب ما فيها من نظام محكم وغيرة وتضحية ومحبة. وتسرب الى طقوس عبادة الله ونظام حياة الشعب المسيحية مراسيم وعادات من مصادر وثنية . ولا يخفى ان الدولة الرومانية قد توطدت عروشها وعظم نفوذها تحت مؤثرات وثنية فلم يكن في حيز الامكان تغيير معالمها بصدمة واحدة ولذا تشربت المسيحية بعضاً من النزعات (الميول) الوثنية التي وجدتها في سبيلها .

ولكن كل ذلك لم يكن ليفسد روح المسيحية الطاهرة النقية بل بالعكس قد احتفظت حتى في أشد ايامها ظلمة بأبنائها البررة المؤمنين حقاً وتغلبت على ولايات جديدة من آن الى آخر واستنبطت الرهبنة كسلاح تحارب به المؤثرات العالمية والوثنية التي كانت تسير معها جنباً الى جنب . وفي ابان صراعها ضد الفساد الناشر ألويته قد انجبت الكنيسة آباء غيورين مثل اثناسيوس ويوحنا فم الذهب واوغسطينوس وأمهات مثلاً للاقتداء مثل نونا وانثوسا ومونيكا ورهباناً معتكفين في البوادي مثل انطونيوس كأن تألب الاعداء عليها وحفوف المخاطر بها قد اديا الى مضاعفة البذل من حيث القيام بواجبات جديدة والتحلي بفضائل غزيرة . ولا يغرب عن البال ان الميل الى العالميات في الدين لا يعزى فقط الى قسطنطين ونفوذ الدولة على الكنيسة بل يرجع أيضاً الى تأصل الفساد في قلب الانسان كما يبدو لنا عياناً ولو في مدى ضيق النطاق قبل ذلك العصر تحت ظل حكم القياصرة الوثنيين خصوصاً في فترات السكون التي فترت فيها روح الغيرة المسيحية وافسحت المجال للروح العالمية .

فالفارق اذاً بين العصور التالية لحكم قسطنطين والعصور التي سلفته ليس اختفاء روح المسيحية الحقة وتسرب الفساد اليها بل هو في الحقيقة رجحان الواحدة على الاخرى ليس الا لأن في العصور التالية له اتسع نطاق الكنيسة واندس بين التربة الصالحة رقاع حجرية قاحلة ونبتت بين الحشائش نباتات سامة وكان من نتيجة ذلك ان طمس الحد الفاصل بين الكنيسة والعالم وصعب التمييز بين المسيحيين اسماً والمسيحيين فعلاً واختفى ذلك العداء القديم

القائم بين الطرفين فاختلط الحابل بالنابل ولكن احتدم على اثر ذلك صدام بين النور والظلمة ، بين الحق والباطل ، بين المسيح والدجال ، وذلك داخل الكنيسة وليس في الخارج (اه) .

مقال (٢) دخول روح العالمية والاسراف في الكنيسة

قال المؤرخ المذكور ايضاً :—

« بدت نتائج روح العالمية في الكنيسة بتفشي عبادة المحسوسات من اموال وثروات ونزوع القوم الى الترفه والفخفخة بعد الفقر والدعة والسذاجة التي جرى عليها المسيحيون البسطاء . ومما زاد الطين بلة ان تشبع الامبراطورية بروح الارستوقراطية Aristocracy (اي فضل الطبقة العليا) مال بها الى حب التظاهر والتنعم بملذات الثروة وبسط العيش دون مرعاة الذوق الادبي والخروج عن قواعد التمدن الحقيقي . فكان الرجال يزنون اقدارهم ووجاهتهم بما امتلكت ايديهم من عبيد واماء وما أوتوا من قصور مشيدة وعربات مذهبة وجياد مطهمة وتجاوزت السيدات حدود اللياقة في الزينة والبهرجة فكن يلبسن الحرير والديباج ويتزين بالمزركشات والمذهبات من قلائد ذهبية في الاعناق واساور في المعاصم وخواتم في الاصابع وكنّ قد ذهبن الى الكنائس بملابس المسارح والملاهي . وقد خاطب مرة يوحنا فم الذهب أحد شرفاء انطاكية قائلاً له « انك تقتني مساحات شاسعة من الاطيان وعشرات من القصور وآلافاً من العبيد والاماء وكثيرا من العربات المذهبة » ويقدم لنا غريغوريوس النازيانزي الذي رأس مجمع القسطنطينية العام سنة ٣٨١ صورة تمثل لنا معالم الرفاهية في مدنية ذلك العصر بقوله نتكيء على وسائد ناعمة مزركشة وننام على فراش وثير يخشى الواحد منا ان يلمسه ونغتاظ اذا سمعنا صوت متسول يئن . . . الخ .

نعم ان هذه شهادات صادرة من اناس تأكل الغيرة احشاءهم ولكن لا شك عندنا بان التمادي في التبذير والترفه والانهماك في الشهوات والملذات وحضور الملاهي والمسارح والاعتكاف الى كل الرذائل الوثنية التي جاءت المسيحية لاستئصالها كل هذه سارت بالمملكة الرومانية وبالشعب الروماني بخطوات واسعات نحو الدمار والاضمحلال حتى اسلمتهم اخيراً الى ايدي البرابرة الذين لم يشفقوا عليهم . فلما أفاق المسيحيون على أصوات القرقعة التي علت عند انهيال صرح الامبراطورية اخذوا يتساءلون لماذا سمح الله بكل هذا فاجابهم احد وعاظهم (كأنه ارميا عصره) « تأملوا في شركم وجرائمكم يتبين لكم ان كنتم أهلاً للعناية الالهية » ولم يكن من وسيلة اجرى لاصلاح آداب الهيئة سوى القضاء على العالم المسيحي اسماً وعلى انقاضه يجب ان تقوم امم فتية تعتصم بالآداب المسيحية التي تأصلت فيهم تأصلاً حقيقياً .

مقال (٣) وصف بلاط بيزنطية في آخر القرن الرابع

قال أيضاً المؤرخ السالف الذكر :—

« ان اختلاط المسيحية بالعالميات كان على أشده في بلاط القسطنطينية الامبراطوري . نعم انه لم يبلغ من التعدي على قواعد الحشمة واللياقة ما بلغه بلاط نيرون أو دومتيان ولكن الفخفخة الخلابة والابهة الخداعة والاسراف

والتبذير وكل مظاهر الامارة والخلاعة فاقت في هـذا البلاط مجالس الامبراطرة الوثنيين حتى قال ليبانيوس في وصف بلاط قسطنطين انه حوى لا أقل من الف حلاق والف من حملة الـكاس والطاس والف من الطهاة وأما الخصيان فـكثرتهم تشبه أسراب الحشرات الجوية في يوم صيف فهؤلاء الاباطرة الذين منعوا الوثنيـة منعاً باتاً وعاقبوا عليها بالموت نعتوا قوانينهم وأوامرهم وقصورهم بأنها «الهية» واكثر من ذلك لم يُدعوا اصحاب الجلالة بل اصحاب الابدية فيا للتجديف ! وبالجملة سلـكوا كأنهم آلهة على الارض وعندما كانوا يظهرون لشعوبهم كانوا يجرون وراءهم اذيال الفخار والعظمة ناسين ان الملك لله وحده .

وقد قال احد ثقات المؤرخين المتأخرين « كان اذا أراد اركاديوس ان يظهر لشعبه أبهة الملك يأمر بان يتقدم جمهور غفير من اخصائه الامراء والاعيان والضباط الملكيين والحربيين ممتطين الجياد المزينة بافخر الزينات الذهبية وعلى رؤوسهم ترس من ذهب مرصعة بالحجارة الثمينة وكان هؤلاء ينادون ايذاناً بقدوم الامبراطور فيفسح له المارة الطريق . وكان الامبراطور يقف أو يتكىء في عربة فخمة مرصعة بالاحجار الـكريمة تجرها بغال بيضاء مزينة بالزخارف الذهبية وحوله في العربة اخصاؤه المقربون وقد ارتدوا بتروس مذهبة العقد منقوشة بالذهب نقشاً بديعاً وكان في العربة مراوح مذهبة تدور كلما تحركت حتى ترطب الهواء . وكانت اعناق المتفرجين تتطاول لتلمح الوسائد البيضاء والطنافس الحريرية واشكال الوشي والتطريز المنقوشة عليها ومن يسعده الحظ منهم و يلمح الامبراطور يرى اذنيه مثقلتين باقراط الابريز وذراعيه بسلاسل ذهبية وتاجه مرصعاً بالجواهر الغالية على اختلاف انواعها وثيابه الارجوانية مزينة بكل ضروب التزين .

بعد مشاهدة هذا المنظر يعود المتفرجون الى دورهم ولا حديث لهم سوى ما شاهدوه من زينات خلابة تبهر العيون .

وعند رجوعه الى القصر يمشي الامبراطور على ارض مفروشة تبراً وكانت تأتي به السفن خصيصاً لهذا الغرض من الولايات النائية وقلما كان الامبراطور يضع قدميه على اديم الارض العارية . » (اه)

وقد عاشت مسيحية بلاط بيزنطية في جو ملوث بالدسائس والمواربات والمداهنات حتى لم تخل منها مجالس الاساقفة ورجال الدين مع إن مراتبهم العالمية ووظائفهم المقدسة كانت كسياج منيع ترفعهم عن المستوى الدنيء . فان أحد هؤلاء الاساقفة هنأ الامبراطور قسطنطين في احتفال السنة الثلاثين لجلوسه على العرش قائلاً له ان الله قد اقامه ملـكاً وسيداً على كل الارض وانه سيملك مع ابن الله في العالم الآتي ! فارتضى الامبراطور بهذه المداهنة المنطوية على التجديف وأطرى الأسقف وأمن على كلامه بدلاً من أن يطلب منه الصلاة لله حتى يستأهل أن يكون كأحد عبيده في هذا العالم والعالم الآتي . وحتى الاسقف يوسيبيوس مؤرخ الـكنيسة المشهورة الذي كان يندب الرياء اللاصق بالمسيحية في بلاط الامبراطورية أعمته ابهة الملك حتى انه في الوليمة التي أقامها قسطنطين للاساقفة في قصره بعد ارفضاض جلسات المجمع النيقوي تذكاراً للسنة العشرين من حكمه رآه مثالاً لحـكم المسيح المجيد على الارض ! !

واغرب من ذلك ان هؤلاء الاساقفة الذين جروا على هذه الخطة أكثرهم ممن قاسوا صنوف العذاب في عصور الاضطهاد وكانت آثار التشويه ، من عين مفقوءة ، ويد مقطوعة ، ورجل مجدوعة ، وفك مخلوعة ، باقية في أجسادهم شاهد حق. ولكن قد دالت تلك الدولة وتغيرت روح العصر فلم ترفع عنهم يد الاضطهاد فقط بل فتح لهم باب السعة والحرية على مصراعيه فانغمسوا في لذات البلاط الملوكي وجنحوا إلى الدسائس والمواربات التي تكثر عادة في المجالس العالمية .

ولكننا نرى من الوجهة الاخرى أن ثبات الاسقف امبروسيوس مع الامبراطور ثيودسيوس ومواعظ يوحنا فم الذهب بطل روايتنا من الادلة الساطعة التي تبين لنا أن الكنيسة لم تعدم في ذلك العصر المظلم أساقفة غيورين يجرأون على لوم لابسي التيجان وتوبيخ المرائين على العروش لاجل خطاياهم وشرورهم كما قال داود «أتكلم بشهاداتك قدام ملوك ولا أخزى» (مز ١١٩:٤٦)

مقال (٤) مضار اختلاط السياسة بالدين

ومن جراء اتحاد الكنيسة بالدولة بدأ عصر المصادمات بينهما والنزاع على السيادة فالدولة حاولت أن تخضع الكنيسة لها والكنيسة حاولت أن تخضع الدولة للسلطات الدينية وكل منها في هذا التنازع قد جاوز الاوضاع المبنية في كلمة الرب القائلة «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ولهذا السبب يرى الباحث أن تاريخ الكنيسة وتاريخ أوربا بعد عصر قسطنطين مرتبطان ببعضهما حتى لا يفهم أحدهما بدون الآخر فمن الجهة الواحدة يرى الحكام

السياسيين بصفتهم حماة الكنيسة واكبر اعضائها مقاماً يطالبون بالاشتراك في ادارتها والتدخل في أمورها الداخلية والخارجية ومن الوجهة الاخرى يرى الاساقفة والبطاركة بصفتهم رؤساء الدولة الروحانيين يطالبون بالتدخل في الامور العالمية وقد لعبوا دوراً مهماً في دسائس البلاط البيزنطي وهذا الاختلاط كان مجلبة للضرر على الكنيسة وعلى الدين لانه قيد الكنيسة باغلال الانظمة السياسية وعطل سيرها في مضمار التقدم الروحي

هذه الصورة تاريخية حقيقية لاشك ولا ريب فيها أتيناكم بها أيها القراء لتدركوا ماهي الخطايا التي وبخها فم الذهب ولتعلموا الوسط الذي اضطر ان يعيش فيه لكن العالم لم يغلبه بل غلب هو العالم وصار « أميناً الى الموت » ويقول المثل « ما فعله المرء يستطيع المرء ان يفعله » أي انه اذا غلب فم الذهب على احواله فتستطيع انت ان تغلب على احوالك

نعم « ان الروحية والحرية لاتجتمعان » وان الكنيسة كانت أشد تقوى في ايام الاضطهادات (أيام الشهداء) منها في أيام الرخاء والفخفخة ومع ذلك فلم يترك الله نفسه بلا شاهد بل أقام يوحنا فم الذهب ومسحه بروحه القدوس لتأدية الشهادة كما أقام ومسح ارميا واشعياء وغيرهما من شهوده الامناء

﴿ حكمة ﴾ قال احدهم « انه بالنسبة الى الفوضوية في هذه الايام الأخيرة (بعد الحرب العظمى) ، فمن الصعب جداً ان نعيش كمسيحيين بالتمام لكن هذه الصعوبة ذاتها هي التي تجعل عيشة المسيحي مرغوباً فيها وخطورة الحال تشوق الكثيرين اليها (كما في أيام الاضطهاد) »

الباب الثاني

الفصل الاول

(مسقط رأس فم الذهب)

« ودُعي التلاميذ مسيحيين في انطاكية اولاً » (اعمال ١١ : ٢٦)

تقع انطاكية في الزاوية الحادثة من تقاطع سوريا بآسيا الصغرى عند الفتحة الواقعة بين جبال لبنان وطورس وكانت مستعمرة لليهود تضارع المدن اليونانية في امتيازاتها وحقوقها المدنية. لا بل كانت محطاً لرحال جميع الناس من سائر الاجناس والطبقات بفضل ما اكتسبته من موقعها الجغرافي ومزاياها الخصوصية

وكانت ميناؤها «سلوكية» بمثابة حلقة متصلة بكل متاجر البحر الأبيض المتوسط ومن البر كانت تأتيها القوافل من العراق و بلاد العرب كأنها نقطة تبادل البضائع والمتاجر الواردة والصادرة من حلب وأزمير[1]

وكأنها كانت رومية الشرق تمثلت فيها تقريباً كل المظاهر من سائر أطراف الامبراطورية حتى كانت في القرنين الأولين من العصر المسيحي «باب الشرق» كما صارت القسطنطينية بعدها ثم أخذ مجد مدينة اغناطيوس يتضاءل شيئاً فشيئاً امام أبهة مدينة فم الذهب ولكن الأخير نفسه كان يذكر انطاكية بالحسنى والوقار حاسباً اياها اول مدينة مسيحية

وقد كثرت الروايات في تأسيس هذه المدينة فقيل ان سلوكس راقب

(١) يوجد هناك اليوم بلدة صغيرة اسمها السويدية

طيران الطيور من قمة جبل كاسيوس فرأى نسراً قد حمل قطعة من لحم ذبيحته الى مكان على الشاطىء شمال فم نهر العاصي فأسس هناك مدينة وسماها على اسمه (سلوكية) وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر ابريل ثم في اول يناير قدم ذبيحة اخرى على تل سلبيوس واعاد الكرة وهذا ايضاً أشار عليه النسر بان هذا المكان لن يكون عاصمة ملكه وطار باللحم الى الجهة الشمالية الغربية فأمر خمسة أو ستة آلاف من المكدونيين والاثينيين بنقل الحجارة والأخشاب الى ذلك المكان وهناك اقام مدينة أنطاكية وسماها على اسم أبيه

وهذه الخرافة تنم على الحيطة و بعد النظر التي جعلها الأمير ديناً له في اقامة عاصمة ملكه واختفت آثار سلفه انتيوخس فجعل انطاكية نقطة اتصال شواطىء اليونان باصقاع الشرق ودجلة والفرات

واقام سلوكس هذا مدينتين بآسيا الصغرى لها علاقة بحياة الرسول بولس احداهما انطاكية بسيدية والأخرى لاذقية الاولى سميت على اسم ابيه والثانية على اسم أمه و يقال عن هذا الأمير انه كان شغفاً بتسمية المدن باسماء افراد اسرته

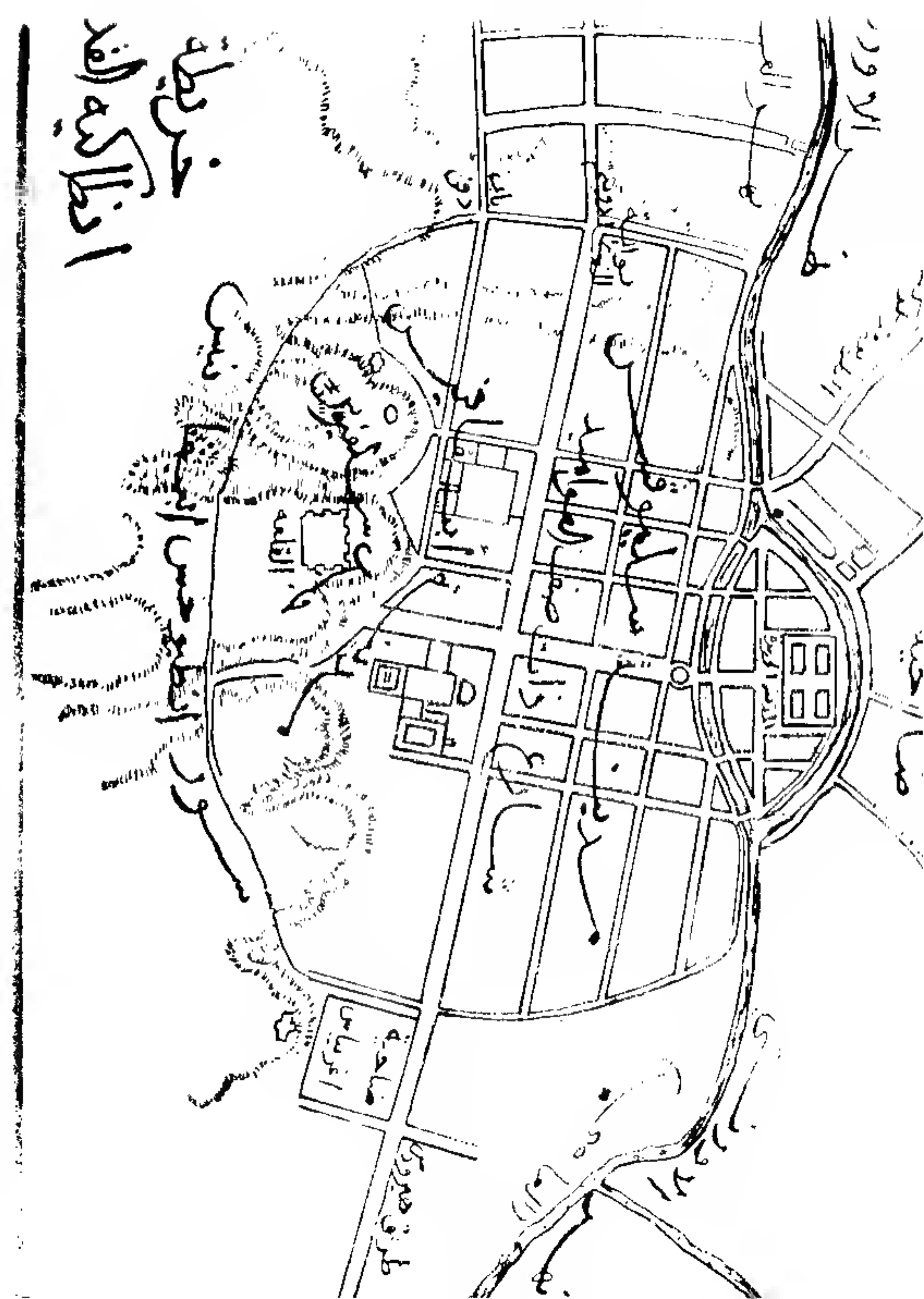
ثم ان أحد المؤرخين وصف مدينة انطاكية في عصر اوغسطس كمجموعة مركبة من اربع مدن وكان هناك نهر محيط بجزيرة فلم تلبث تلك الجزيرة على ممر الدهور ان صارت مركز المدينة الجديدة أي انطاكيه (انظر خريطتنا على وجه ٢٢)

أما المدينة القديمة فكانت قائمة على سفح جبل قيل ان الذي بناها هو انطيوخوس وقد شيد على قمة الجبل هيكلاً للاله جوبتير وعلى قمة اخرى

قلعة حصينة — وكانت الارض عند سفح الجبل مسطحة يبدأ عندها طريق منجم طوله اربعة أميال يقطع المدينة كلها وقد صفت البواكى (العواميد) على جانبيه ليسير فيها المارة

واما طبائع سكانها وامزجتها فيمكن الحكم عليهم من المؤثرات التي كان لها اليد الطولى في اعلاء قيمة المدينة واتساع نطاقها فقد أخذت في التزايد والسعة و بعد الصيت حتى صارت مقراً لحكام الرومان ومورداً لجميع الاجناس وقد هرع اليها أرباب اليسار من الرومان لجمال طقسها واعتدال هوائها وكان ذلك سببا في رواج متاجرها وازدياد حدائقها ومتنزهاتها وأبنيتها حتى اصبحت مضرب المثل في ملاهيها وملذاتها وكان يقصدها الشعراء والقواد والملوك للاعجاب والتغزل في جمال معالمها ولكن سكانها الأصليين كانوا خليطا من سفلة اليونان والشرقيين همهم الاكبر حضور الملاهي وقتل الوقت في مسارح التمثيل ونوادي أندية الالعاب وكانت سوق الخرافات وحيل النصب والتدجيل رائجة بين ظهرانيهم وهناك وجد المنجمون الكلدانيون والدجالون من اليهود مرتعا خصبا حتى صارت حالة المدينة من هذه الوجهة كسائر المدن اليونانية الشرقية التي كانت تحت السيادة الرومانية وأمست مهد الأضاليل والأباطيل

وخلاصة الكلام ان مدينة انطاكية كانت في العصر الأول المسيحي عاصمة الشرق وعروس المدائن ومقر العبادات الوثنية حتى مثلها المصورون فى تمثال رمزي بسيدة مستوية على صخرة وتاج فوق رأسها ويجري تحت رجليها نهر العاصي المشهور .



الفصل الثاني

المدينة الاولى

حياة واعمال البطل فيها

كان في مدينة انطاكية في أواسط القرن الرابع رجل من ذوي الغنى واليسار يدعى سكوندس كان قائداً في المعسكر الروماني في سوريا وكانت له زوجة لا تقل عنه شرفاً تدعى انثوسا. ولا نعلم من حياة هذا القائد الشريف سوى كونه وثنياً وأما امرأته فكانت مسيحية ورعة. وهذا الأمر أي ان يكون أحد الزوجين مؤمناً والآخر غير مؤمن كان جائزاً بحسب شريعة الدين المسيحي (١ كو ٧: ١٢ و ١٣) غير أن هذا الرجل تنصر وصار مسيحياً بفضل تأثير امرأته وقدوتها الصالحة

وفي سنة ٣٤٤ للمسيح ولد لهما ولد أسمياه يوحنا غير ان أباه توفي وهو لا يزال طفلاً فتولت أمه تربيته وأبت الزواج مرة اخرى اكتفاء بولدها هذا مع انها كانت في سن العشرين. ولما كانت من النساء التقيات اهتمت بتهذيب ولدها وكانت تنحو في تربيته نحو لوئيس وافنيكي فعلمته الأسفار الالهية ولم يمض وقت طويل حتى أثرت عليه التعاليم المقدسة وسقط البذار الصالح في قلبه

ولم تكتف بذلك بل اجتهدت في تثقيف عقله بالعلوم والمعارف فدرس علمي المنطق والبلاغة على ليبانيوس اعظم فلاسفة ذلك العصر [١] فبرع براعة

(١) قيل انهم تقدموا الى ليبانيوس قبل وفاته سائلين اياه من هو أهل لان يخلفه ؟ قال « يوحنا لو لم يسرقه المسيحيون » اهـ

غريبة دهش منها أساتذته وظن الكثيرون انه ينتظم في سلك علماء الشرائع لانها كانت الواسطة الوحيدة للتقدم في الوظائف السامية والمراتب العالية في تلك الأيام . و بعد أن قضى نحو سنتين وهو يرفع الى القضاء دعاوي الفقراء والمظلومين و يدافع عنها بفصاحة نادرة ترك هذه المهنة لان افكاره كانت مهتمة بما فوق لا بما على الارض . ولاشك ان هذا كان نتيجة فضل أمه وحكمتها وتقواها الزائدة لانها ما كانت تفتأ عن تقويمه وارشاده بالنصائح التقوية والمواعظ الدينية ولان هذه النصائح كانت تنبعث من قلب ملآن بالفضيلة فكان لها وقع شديد في نفسه حتى شب وترعرع على مبادىء التقوى والاستقامة

ومن أشهر عادات فم الذهب انه كان يشير الى الكتاب المقدس في اثناء مواعظه ويقول ان الكتاب هو القانون الحق وأساس كل تعليم صحيح فلايلزم ان يطلب من أي مسيحي أن يؤمن بأية عقيدة غير موجودة في الكتاب أو غير مبرهن عليها من الكتاب وفضلاً عن ذلك كان يدقق جداً البحث عن ذات معنى الاصحاح أو الآية . وما يهمنا في هذا المقام هو إن تلك الخصلة الممدوحة جداً نتجت بطبيعة الحال من قراءته في الكتاب مع والدته وهو ولد صغير

ولما رأى ليبانيوس الفيلسوف الوثني الشهير كيفية اعتناء هذه المرأة الفاضلة بولدها وما غرسته فيه من أصول الفضائل من مبدإ نشأته لم يسعه إلا ان صاح قائلاً « يالنساء المسيحيين !! »

نظر يوحنا الى العالم بما فيه من شر وفساد فانكب على مطالعة الكتب المقدسة ومارس الأصوام والصلوات واعتاد لبس الملابس البسيطة المحتشمة مظهراً تمام الرزانة والتعقل والسكون حتى عرف الجميع من سلوكه بأنه خصص نفسه لله و كرسها لخدمته تعالى . ولما سمع به ملاتيوس أسقف انطاكية قربه اليه وهذبه ومكث تحت ارشاده مدة ثلاث سنوات ثم تعمد وانضم الى كنيسة المسيح المنظورة . أما سبب تأجيل المعمودية فهو أولا ان المسيحيين في ذلك العصر اقتدوا بقسطنطين الذي ارجأ معموديته خوفاً من الوقوع في الخطية المهلكة بعدها انما الباعث الأهم هو أن صديقه ملاتيوس كان قد نفي من المدينة وكان الاساقفة الآخرون اريوسيين

وكان له صديق حميم يدعى باسيليوس كانت استعداداته وسيرته مشابهتين لروح يوحنا فاتفقا معاً على ان يعيشا عيشة التوحد وعزما على الخروج من انطاكية سراً الى البراري . ولما علمت والدته بعزمه هذا اخذت تذكره بشدة الاتعاب التي قاستها لاجل تربيته وترملها من أجله وعنايتها بحفظ ميراثه ومن ذلك قولها ، « اني لاجل ما فعلته معك واحتملته لاجلك لا أطلب منك إلا أمراً واحداً وهو انك لاتعمل على ترملي مرة ثانية ولاتجدد فيّ أحزاني السابقة بعد أن ناهزت النهاية فانتظر قليلاً الى ان يأتي الموت ويفرقني منك وتدفنني بقبر والدك مضيفاً جسمي الى رد عظامه وبعد ذلك افعل ماتشاء دون أن يمانعك أحد ولكن طالما والدتك حية فلا تعكر حياتها ولاتضف أسبابا لشقائها وغمها لا سيما لوالدة لا تستحق منك هذه المكافأة ولا اطلب منك أن ترتبك في قضاء أشغالي ومهماتي العالمية التي كان يجب ان تمنعك . وكنت أعذرك اذ كنت تفر من قلق هذه المهمات والاشغال التي

هي أعداء سكينة روحك ولك مادمت أنا أباشرها بذاتي حتى تبقى انت في راحتك وهدوئك فعلى الأقل اقتنع بهذا السبب. ومهما كان أصدقاؤك كثيرين وأمناء مخلصين في ودادك فلا تجد واحداً منهم يحبك ويحب راحتك ويشفق عليك ويتملق بك برغبة شديدة لخيرك ونموك نظيري » اه

فأذعن يوحنا لتوسلات والدته ورأى من الحكمة ان يطيعها ويخضع لطلبها شفقة عليها وتوفيراً لحزنها غير انه استخدم حريته التي منحتها له والدته فأخذ في الانفراد الكثير مواظبا على التعبد بحرارة لكبح آلامه الجسدية واخضاعها لروحه السامية

ولما ان بلغ الخامسة والعشرين من عمره قد وجد نفسه في خطر يلجئه للهروب للبرية والخروج من انطاكية وذلك ان مجمع الاساقفة قرر بأن يرقيه هو وصديقه باسيليوس الى درجة الاسقفية فشعر في ذاته انه غير مستحق لهذه الوظيفة لسموها ودبر أن يختفي ويستعد للهروب . وفي ذلك الوقت جاء صديقه باسيليوس يطلب منه ان يرى لهما طريقة بها يتخلصان من قبول الاسقفية. فلم يصرح له يوحنا عن عزمه لثقته بكفاءة صديقه وشجعه على ان لا يهرب. فرجع باسيليوس غير مرتاب منه ظاناً بأنه سيدبر وسيلة ويخبره عنها ليهربا معاً . وبعد ذلك اختفى يوحنا اختفاء لم يعرفه أحد واما باسيليوس فلكونه كان في منزله قبض عليه الاساقفة لرسامته أسقفاً فبذل جهده في الامتناع فلم يفلح ولما شعر باختفاء صديقه اغتم وحزن وله الحق في ذلك . ثم بحث عنه كثيراً ولما وجده ابتدأ يشكو له مرارة الحيلة التي أوقعه فيها فذكر له يوحنا الاسباب التي ألجأته الى ذلك وانه بهذا الامر لم يخن واجبات المحبة. ولهذا السبب تحرك الى تأليف كتاب في الكهنوت استجلاباً لرضا صديقه وتبريراً لنفسه باظهار الدواعي لهربه (انظر مقالته الاولى) وليس ذلك فقط بل انتهز تلك الفرصة لبيان واجبات تلك الوظيفة المقدسة في المقالات الخمس الأخيرة [1] ولا يقتنع كل قارىء باعتذاره عن اختفائه لانه والحق يقال أهمل زميله العزيز ومع ذلك فما أحلى تلك الروح المقدسة التي كانت تختلج في صدور أهل تلك العصور المسيحية الأولى فأين لنا بأمثلة كهذه تعلمنا ثقل مسئولية الخدمة الدينية التي كان يهرب منها أولئك العلماء الافاضل الذين بلغوا درجة سامية في الفضيلة والتقوى ؟ فياحبذا لو كان جميع خدمة الدين يجلون وظيفتهم بهذه الدرجة !

ولما توفيت والدة يوحنا رجع الى أفكاره بادىء بدء في انفاذ رغبته بتركه العالم فرحل من مدينة انطاكية قاصداً ديراً بالجبال المجاورة لتلك المدينة واقام فيه مدة اربع سنين مداوماً على التقشف وعيشة الخشونة التي لم يعتد عليها قبلاً. وكتب بذلك مرة الى صديق له يقول « انني لما عزمت على ترك مدينة انطاكية لأدخل تحت مظلة الرهبان لم يكن لي شاغل إلا التفكر في كيف أعول نفسي وكيف يمكن ان أحصل على ما اقتات به ومن أين احضر لنفسي خبزاً طرياً لقوتي؟ بل وكيف استعمل نوعا واحداً من الزيت لمصباحي وأكلي ؟ وهل أقدر ان احتمل صعوبة الاستمرار على أكل الفول والعدس أو على الاتعاب في الاشغال مثل تفليح وحفر الارض وحمل الأخشاب وما أشبه ؟ فكنت اعمل حسابات كثيرة لاجل راحتي الجسدية » اه [2]

(١) لهذا الكتاب عدة طبعات أما النسخة التي بأيدينا فطبعه الروم الكاثوليك (راجع خاتمة هذا الكتاب)
(٢) ليس كل الرهبان في درجة واحدة فمنهم من هرب من العالم لاخفاء ذنب قد

وفي ذلك الحين كان يزاول التعليم بفرح لظنه ان الدنيا نسيته كما هو قد نسيها ولكن النور لا يمكن اخفاؤه فقد انتشر خبر علمه بواسطة راهب كان يذيع خبره ولهذا قصده الكثيرون لزيارته وللاسترشاد بتعاليمه. لكنه لم يلبث في الدير بعد ذلك طويلا لكونه فرز لأمور أسمى من ذلك ولو انه اجتهد في اول الامر ان يكلف نفسه بحمل ثقيل لانه فضل الانفراد بنفسه وتوحد في مغارة بجانب الجبل كان ينام فيها وحيداً بلا فراش ولا سراج وعاش في غاية الضنك وفي مدة اقامته في المغارة درس الكتاب المقدس حتى قيل انه تعلمه غيباً. ولكن لكثرة تقشفه ولرطوبة المغارة أصابه مرض اضطره ان يرجع الى انطاكية ولولا ذلك لكان قد مات. وكان رجوعه في سنة ٣٨١ م أي في السنة الرابعة والثلاثين من عمره.

وحالما وصل الى انطاكية تلقاه أسقف ملاتيوس بصدر رحيب ونظراً لان يوحنا كان قد ترقت مداركه وصار لائقاً للخدمة الدينية رسمه الاسقف شماساً في سنة ٣٨١م وهي سنة انعقاد مجمع القسطنطينية فقام بوظيفته خير قيام نحو خمس سنوات في اثنائها كتب جملة مقالات حتى صار له نفوذ عظيم في المدينة وكان يعتبره أهلها كمرشد لهم ومعلم معاً. ولما توفي الأسقف ملاتيوس وخلفه فلافيانوس رسم يوحنا قسيساً سنة ٣٨٦م ووكل اليه الخدمة والوعظ بين الجماعة. ومن ذلك الحين شرع يعظ بفصاحة نادرة حتى توافدت عليه الناس جموعا وأفراداً لسماع عظاته المؤثرة وعند ذلك لقبوه «فم الذهب» و«فم السيد المسيح» نسبة الى فصاحته الخالبة للعقول السالبة للالباب وما له من الحجج القوية وبراهينه السديدة العقلية وسامي مداركه وبلاغة أفكاره في المعتقد المسيحي. ولان الاقوال كانت تتدفق من فمه كالذهب النقي والجواهر الكريمة

ومع ان الوعظ كان مختصاً بالأساقفة وحدهم إلا ان يوحنا قام به واستمر في مباشرة الوعظ اثنتي عشرة سنة. وكانت تمتاز مواعظه عن مواعظ الغير بالبرهان القاطع والتعبير المنتظم مع قليل من التخيلات والتأويلات. ومع فصاحته لم ينظم كلامه على مقتضى علم المنطق بل كان يتكلم ألفاظاً ذهبية بروح حماسية. وكان شديد الارهاب للخطاة وكان يلدغ في كلامه كثيراً خصوصاً الاغنياء مما جر عليه الوبال كما يحدث لنا ايضا اذا كنا أمناء للمسيح الذي أقامنا رعاة النفوس

وكان في مواعظه كثيراً ما يأتي بشروحات الكتاب المقدس على المبادىء الصحيحة لانه كان يجتهد أن لا يخرج عن الموضوع الاصلي بل يسلك فيه بالمعنى الحقيقي. ولم يكن يخشى استعمال الالفاظ الخاصة بتقبيح تصرفات العالميين بل بكل جرأة وحرية كان ينطق بها في مواعظه ليبين لهم أحوالهم وما يحتاجون الى عمله في ذلك الزمان. وما كان ايضا يستحسن الالفاظ السرية المبهمة والاستعارية الواردة بالكتب المقدسة وكانت جارية الاستعمال في ذلك الحين بل جعل يترجمها ترجمة دارجة فصيحة لتكون معروفة لدى السامعين بمعناها الحرفي الاصلي. ولم يكتف في مواعظه بالامور الدينية والمواضيع الكتابية بل كان ينتهز الفرص ويقبح لسامعيه أنواع المآثم والرذائل التي كانت محبوبة

افرفه فبلا لكن يوحنا لم يكن كذلك وفضلا عن ان نيته طاهرة وغرضه مخلص تماماً فانه كان على جانب عظيم من تثقيف العقل وتهذيب الاخلاق مع التربية الدينية التي اخذها من امه وهذا هو الذي قدره على النمو المطرد في النعمة

في ذلك العصر بكيفية مريعة فكان يصف العيشة المدنية مظهراً برسم واضح جلي كل المناظر والملاهي التي تعوّد عليها الجميع مثل وصفه لمنازل الاغنياء وفخر ولائمهم وعبيدهم وحشمهم ووصفه لمزدحمات الطريق وما فيها من أشكال وانواع العالم على اختلاف طبقاتهم ما بين قاصد أشغاله ومتوجه الى محلات الملاهي على انواعها مثل ميادين ملاعب الخيول ومسارح الرياضيات البدنية والتياترات . ولم يقتصر أيضاً في خطبه ومقالاته على ذكر ذلك بل جمع بين الراقصين على الحبال والسحرة والمشعوذين ومبيني البخوت والمضحكين و بين الفلاسفة الموقرين ذوي البرانس المفتخرة واللحى الجليلة والعكاكيز الطويلة . كل هؤلاء لم يغفل عن ذكرهم في مقالاته ومواعظه وخطاباته

وكذا احياناً يتدخل في مباحث وتعاليم دينية محامياً عن الايمان المسيحي الصحيح . وبراهينه على التعليم المسيحي كانت كلها كتابية وأقواله عن طريق الخلاص كانت في غاية الايضاح والافصاح من ذلك قوله « الانسان المديون قد حبسه الشيطان وهو لا يقدر أن يفي دينه . أما المسيح فليس مديوناً بشيء ولا الشيطان عليه حكم بل ويمكنه أن يفي ما عليه ولكنه جاء ووفى دين الموت المستحق على ذلك الانسان المربوط برباط الاسر » اه. ومن ذلك أيضاً قوله «من يقدر ينطق بأعمال الرب الحسنة أو يتكلم بكل تسابيحه؟ فقد اذل نفسه لاجلك ليرفعك أيها الانسان ومات عنك ليحييك وصار لعنة من اجلك حتى تكون لك البركة » اه

ولم يمض زمن طويل حتى انتشر خبره في جميع الانحاء فقصد بالآمال ورمي بالابصار وشدت اليه الرحال وعندما كان ينتصب للخطابة أو الوعظ ويقرع الاسماع بما له من جليل المعنى ومؤثرات اللفظ كانت تجتمع حوله الجموع الكثيرة وتذرف الدموع الغزيرة وكانوا يظهرون استحسانهم له بتصفيق حاد مستمر حتى غضب من ذلك وقال « ان تصفيقكم لي لم يجعلني اتألم واتوجه الى بيتي وقلبي حزين كئيب نقودني افكاري الى البكاء والنحيب وأقول لنفسي : ربما بفخرك يانفسي تتسببين في ضياع بعض الأنفس وتكونين قد صرفت اوقاتك باطلاً » اه

الفصل الثالث

هجوم الشعب على التماثيل الملوكية

انه في يوم ٢٦ فبراير سنة ٣٨٧م حصل حادث عظيم في انطاكية وتفصيل الخبر — انه في ذلك الصباح نادى مناد الى الشعب قائلاً: « ان الامبراطور ثيودوسيوس قد عزم على فرض ضرائب جديدة لاجل الجيش . ومدينته انطاكية بالنسبة الى موقعها وعظمتها وبالنسبة الى موارد رزقها سيقع عليها القسط الأوفر من هذه الضريبة » وربما كان يتوقع ان الانطاكيين يرضخون للحكم بعد قليل من التعب لكنهم لم يفعلوا ذلك فانهم وان يكونوا قد سكتوا سكوتاً تاماً في أول الأمر لكنه كان سكوتاً مرعباً و بعد قليل قد اضطربوا وتشاغبوا فجأة وقاموا بمظاهرة عظيمة وتسلحوا بأي سلاح وجدوه وهجموا على السراي الامبراطورية وهناك وجدوا تماثيل مرمرية وأهمها تمثال الامبراطور المقدس ثيودوسيوس وبجانبه تمثال المرحومة الامبراطورة زوجته المحبوبة ولاول مرة لم يبالوا بقداسة شخصية امبراطورهم فهجموا على التمثالين وكسروهما وجروهما الى ساحة المدينة ولم يردعهم عن اعمالهم هذه إلا هجوم الفرسان . ثم خافوا وهربوا والتجأوا الى منازلهم . فمع ان الاضطراب لم يدم إلا بضع ساعات مع ذلك بقوا أياما واسابيع في أشد خوف ورعب منتظرين ما عسى ان تكون النتيجة . وخافوا من الامبراطور الذي لقبوه بالاسبانيولي لانهم قد أهانوه ايما اهانة ولكن لم يلبثوا كثيراً حتى أتى عليهم جيش جرار فأعدم البعض وقوصص البعض وليقينهم بعناد الامبراطور خافوا من احتمال تخريب المدينة وابادة أهلها على بكرة أبيهم ولكن على رأي المثل — «يرسل الله قائداً في ساعة الاحتياج اليه» — فقد أرسل الله لهم بطلاً — هو واعظهم الشهير يوحنا فم الذهب الذي قام واعظاً اياهم كل يوم لتسكين الخواطر وتهدئة الشعب ومن أقواله — « أطلب اليكم ان تسكتوا هؤلاء البغاة الذين أفسدوا المدينة . لا يقل احدكم مالي ولهؤلاء القوم . جميعاً مسئولون بذلك ، اذا كان جميع الحاضرين يقسمون بينهم الاعتناء براحة انطاكية وسلامها فلا بد ان يصل الاصلاح في المدينة كلها . نعم ان الكنيسة لا تتضمن إلا قسماً صغيراً من الاهالي على انه أفضل قسم . ان الرجل الواحد المملوء من الغيرة المقدسة يستطيع تغيير مقاطعة بأسرها » اه وقال ذات يوم مبكتاً اياهم « أية منفعة لكم في قصوركم الشاهقة ؟ الآن قد تركتموها وهربتم الى البرية . أية منفعة لكم في ذهبكم ؟ اذا كان لا يمكنه ان يحميكم من غضب انسان فهل يحميكم من غضب الله الذي لا حاجة له الى الذهب ؟ » اه

ويظهر ان هذا الضيق الذي حل بأهل انطاكية كان بمثابة امتحان ألقاه الرب على شعبه ولقد فرح فم الذهب جداً لما رأى ثمار هذا الامتحان ولذلك قال « كم مرة طلبنا من الدنيويين ان يهجروا المسرح؟ غير انهم أبو إلا الاحتشاد في تلك الاماكن الشريرة والركض الى تلك الاجتماعات الشيطانية المقاومة لاجتماعات كنيسة الله . فكنا نسمع على الجانب الواحد ترتيل المزامير وعلى الجانب الآخر الأصوات الوحشية . أما الآن فالمعزف ساكن والملعب خال والأغاني الدنسة لا تسمع في شوارعنا . كنائسنا ملآنة من الساجدين

والجميع يصلون إلى الله حتى ان المدينة كلها أصبحت كنيسة . يا للعجب ان أمور هذه الحياة سواء اكانت جمهورية أم انفرادية صار لها المكان الثانوي الآن فلا نسمع شيئاً على المائدة أو في الشوارع واماكن الاجتماع سوى ناموس الرب وكلمه . إذا كان عشرة منا فقط يدأبون في الأمور الصالحة فالعشرة يصيرون عشرين والعشرون يصيرون خمسين والخمسون مائة والمائة الف والألف يخلصون المدينة كلها » اه

أما أهل المدينة الذين شعروا بعظم مصيبتهم فقد توسلوا إلى الأسقف فلابيانوس لكي يتوسط لهم عند الامبراطور ولهذا قصد القسطنطينية (رغماً عن شيخوخته) بغية أن يشفع للانطاكيين. وفي غضون غيابه استوجب الخوف القلوب لأن الأخبار شاعت حينئذ بأن جيش الامبراطور يزحف على المدينة فرأى فم الذهب أن يشجعهم وينزع من قلوبهم هذا الخوف فقال «قد رأيت كثيرين محزونين ومنحنين لزعمهم أن غضب الامبراطور أشبه بزمجرة الأسد فليعلموا أن الذئب سيرعى مع الخروف وأن الأسد سيأكل تبناً مع الثور. الرب قادر أن يحول هذا الأسد إلى حمل وديع فلندعه في ضيقنا لينقذنا من كل روعتنا لوات جماعاتنا تنفع كثيراً إذا كانت تصدر من قلوب متخشعة . ما أعظم التعزية التي لنا الآن فاننا نجتمع للصلاة يوميا ونتمتع بتلاوة كلمة الله ونفرح ونصلي معا وبعد ان نحصل جميعنا على البركة نرجع إلى بيوتنا بسلام. إذا كان الحكام يرعبونكم فالكنيسة يجب ان تعزيكم. الكنيسة أمنا جميعا تفتح ذراعيها وتجتذبكم إلى حضنها كأولاد » اه

وكان الجمع ينتظرون بفروغ صبر نتيجة توسط أسقفهم لدى الامبراطور ولكن الاسقف لما وصل إلى العاصمة لم يستطع مشافهة الامبراطور في أول الأمر بل وقف بعيداً عنه يبكي كأن ذنب كل انطاكية قد وضع عليه وابث يتوسل مدة طويلة لدى الامبراطور حتى رق قلب هذا وشفق على المدينة ومنحها عفواً كريماً عاماً عن كل ما صدر عليها من أنواع العقاب فأرسل الأسقف مبشراً سريعاً [1] ليزف لأولاده هذه البشرى المفرحة أما هو فرغماً عن شيخوخته رجع بالتباطؤ الى رعيته المحبوبة ليقاسمها في أفراحها. ولا تسل أيها القارىء العزيز عما لحق القوم من السرور والانشراح حال سماعهم صدور الامر بالعفو فكنت ترى أهل المدينة متهللين فرحين جذلين .

أما فم الذهب فجعل هذه الحوادث وسيلة بها يذكر القوم بفضل الله وكرمه وفي عيد القيامة أي بعد سبعة أيام من تاريخ إصدار العفو الامبراطوري قال على مسمعهم « الله العالم بكل شيء قد جعل هذه الكلمات في قلبي . قد كان أهالي هذه المدينة يحبون الصالحات منذ القرون الخالية ولكن بعض الاشرار الذين لا يطلبون نعمة الله ولا خلاص نفوسهم تقاطروا إلى مدينتنا وعملوا ما عملوه من الشر والاساءة قد سمح الرب بهذا الهياج على الامبراطور لكي يعاقب إهمالكم فعلى المسيحيين الآن أن يميزوا أنفسهم من غير المؤمنين بحيث يحتملون كل رزية بثبات رجاء السعادة الخالدة. عليهم أن لا يخافوا من الآلام البشرية لان المؤمن قدماه راسختان على الصخرة فلا تقلبه الانواء والزوابع .

(١) كانت المسافة ٨٠٠ ميل وكان ذلك الشيخ على حافة القبر ولكنه احتمل التعب للشفاعة في الآخرين

يا أحبائي لا يسوغ لنا أن نيأس لان الله حافظنا يعتني بنا اكثر مما نعتني نحن بأنفسنا » اه

و بعد انتهاء هذه الحوادث لبث فم الذهب يواصل إلقاء العظات بكل همة ونشاط حتى ان نتيجة أقواله و بلاغة مقاله ورقيق عباراته وتأثير عظاته ووداعته و براعته في نطقه ولفظه كانت سبباً في ان كثيرين من الوثنيين الذين سمعوه اعتنقوا الدين المسيحي لانهم رأوا فرقاً واضحاً ما بين فلاسفتهم و بين أفاضل المسيحيين .

و بالجملة فان انطاكية كانت تفتخر بهذا البطل لانه كان مجدها وزينتها نسبة لنبوغه الذي به فاق أهل الزمان . وشاع اسمه وذاع في كل مكان .

الفصل الرابع

(المدينة الثانية — القسطنطينية — في زمن فم الذهب)

الآن ننتقل بالقارىء الى رومية الجديدة التي رسمها وبناها قسطنطين ببيزنطية كعاصمة شرقية لمملكته المزدوجة وسماها باسمه

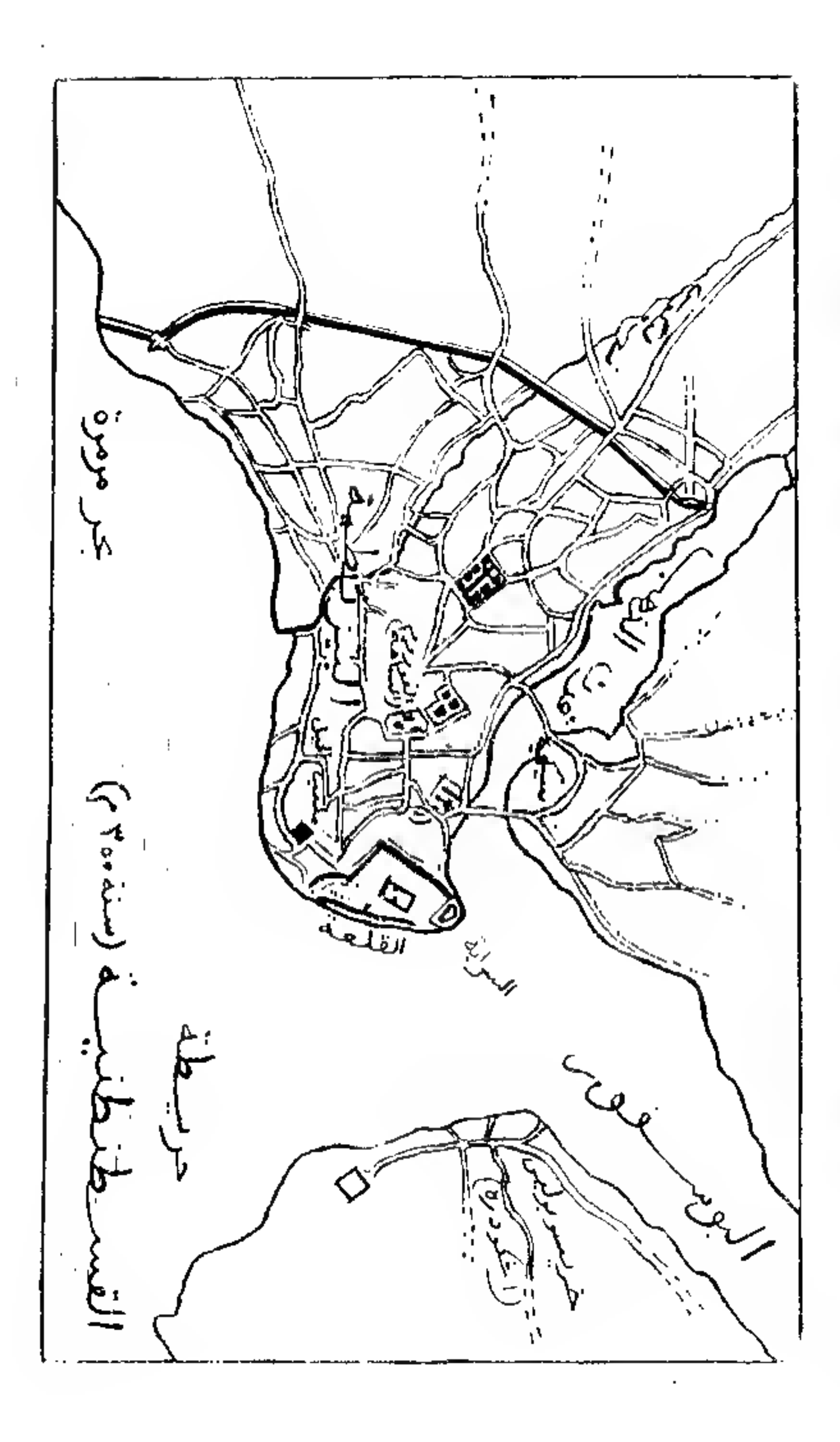
وقد كانت بيزنطية القديمة واقعة على أول التلال السبعة القائمة عليها القسطنطينية الحديثة ولكنها كانت أوسع من ذلك مساحة والمحتمل انها كانت ممتدة إلى البقاع الثلاث الواقعة وراء المثلث الذي تشغله الآن السراي السلطانية وعلى هذا الرأس الممتد بانحراف نحو البحر كحلقة تربط العالم الشرقي والغربي أسس قسطنطين الكبير المدينة العظيمة التي سميت باسمه .

ومما حكي بهذه المناسبة أن الامبراطور مر بحدود العاصمة المزمع انشاؤها ماشياً على قدميه ورمحه بيده. ولما استغرب أهل بلاطه اتساع الدائرة العظيمة سألوه قائلين « إلى أي بعد تتقدم جلالتكم ؟ » أجاب « اني أتقدم حتى يقف السائر أمامي » (أي ملاك الله حسب ظنه) ومهما يكن من القصة فانها على كل حال دليل على أن يوم تأسيس العاصمة الجديدة كان يوماً تذكاريا عظيماً

وقد بدأ قسطنطين باقامة الاسوار على مسافة ٣٠٠٠ قدم من الحصون القديمة ومدها من الميناء إلى بحر مرمرة حتى ضمت داخلها خمسة من التلال السبعة التي أقيمت عليها المدينة ولكن لم يتم بناؤها حتى نهاية حكم الامبراطور قسطنطين ثم في سنة ٤٠١ رمم اركاديوس (ابن ثيودسيوس الكبير) هذه الاسوار وكانت قد تهدمت بفعل زلزلة حدثت في تلك السنة .

وكل هذه الاسوار المزدوجة المنيعة الشاهقة قد لعبت بها أيدي الحدثان ولا يرى الناظر إلى مكانها الآن الا اطلالا بالية وحوائط متهدّمة ممتدة من الميناء إلى بحر مرمرة على مسافة أربعة أميال وكان على جانبي السور بروج مستطيلة الشكل وكان طول المدينة في ذلك العصر ثلاثة أميال رومانيـة ومحيطها نحو ١٣ ميلاً رومانياً . و بعد الميناء كانت أشجار التين مغروسة في صفوف متراصة على مسافات بعيدة ثم جاء يوستينيان فزينها واحسن هندامها وأما الضاحية فلم تدخل نطاق المدينة الا في حكم الامبراطور هرقل .

ثم ان البنائين لبيزنطية الجديدة تحت أمرة قسطنطين اتبعوا انظمة هندسية حديثةومن أشهر بدعهم التي تستلفت الانظار القباب الصغيرة ففي اثينا كانت القباب الهندسية مستقيمة ومثلثة ومربعة ولـكنهم اقاموها في القسطنطينية قباباً مقوسة ومستديرة ومجوفة من الداخل ومحدبة من الخارج وفي أثناء حصار البيزنطية نصب قسطنطين معسكره فوق التل الثاني ولكي يحيي ذكرى انتصاره اختار هذا المكان لجعله ساحة المدينة الكبرى وكان بيضوي الشكل وله مدخلان على شكل أقواس النصر وكانت الاروقة المطلة عليه مملوءة بتماثيل آلة اليونان القديمة وفي وسط الساحة اقيم عمود عال من الرخام والسماق يبلغ علوه نحو ١٢٠ قدماً وعلى هذا العمود نصب قسطنطين بلا خجل ولا حشية تمثاله ، منقوشاً عليه أوصاف المسيح وأبولون بعد أن استبدل مسامير الآلام باشعة الشمس ! ! (إلا انه بعد الف سنة أي في سنة ١٤١٢ حدثت زلزلة خلت الرباط المربوط به التمثال وهوى إلى الارض و بعد ذلك رفع الصليب فوق العمود بدلاً عن تماثيل القياصرة) .



وكانت في المدينة ساحة أخرى غير هذه الساحة الكبرى وهي مربعة الشكل يحيط بها عدة أروقة وبها صفان من الاعمدة وفيها (بلاط القصر) وهو عبارة عن (بواكي) مرتفعة مزينة بالتماثيل

وكان من أهم أبنية المدينة ملعب الخيل وكانت المسافة بين الهدفين مرصوصة بالتماثيل والمسلات وعلى مقربة من هذا البناء عمود البرنز المضفور (وقد حطمت أقواس محمد الثاني هذا العمود البديع) .

وقد شاد مؤسس القسطنطينية أربع عشرة كنيسة واربعة عشر قصراً وكثيراً من أقواس النصر وثمانيـة من الحمامات وسار هو وخلفه على النظام المتبع في روما القديمة من جهة حفر المجاري والمصارف ولا يزال في هذه المدينة حتى اليوم خزانان الماء بناهما القياصرة اليونان استعداداً لطوارىء الحصار أحدهما جاف تماماً ويسميه الاتراك «قصر الف عمود وعمود» والآخر مستعمل حتى الآن كحوض واسمه «القصر الارضي» وهو عبارة عن بحيرة تحت سطح الارض بسقف مقوس مقام على ٣٣٦ عموداً من الرخام .

وكان هناك كرسي يجلس عليه الامبراطور لمشاهدة الالعاب في الميدان وإلى جانبه درج مستدير (لولبي) ينزل به الى قصره . وكان هذا البناء فخماً في مساحة كبيرة من الارض بين الملعب وكنيسة آجيا صوفيا وفي محله الآن السراي السلطانية .

وكان في المدينة كثير من الأبنية الخصوصية والبيوت التجارية ودور الملاهي ومسارح الطرب والمتنزهات وكلها آيات ساحرة في البدع والجمال . وكان

فيها هيا كل قليلة مثل هيكل الشمس والقمر وافروديت وكلها ظلت قائمة كما هي من أيام الوثنية ولكنها حرمت من الاوقاف التي كانت مخصصة لها .

ولم يبن في المدينة الا كنائس قليلة أحدها سميت بكنيسة (الحكمة السامية) وكذا جعل هيكل السلام القديم كنيسة . ويقول يوسيبيوس انه تم بناء كنيسة الرسل الاثني عشر قبل موت قسطنطين بأيام قلائل ثم تهدمت بعد ذلك بعشرين سنة واصلحها قسطنطيوس ثم أعاد بناءها يوستينيان وأخيراً خربها محمد الثاني .

وبنى ثيودوسيوس العظيم باب القسطنطينية الكبير الذي اطلق عليه كتاب البيزنطية « الباب الذهبي » وهو في الجهة الجنوبية من المدينة وكان يدخل منه الاباطرة ويقفون عند بدء الشارع الاكبر الذي يقطع المدينة كلها حتى البوسفور .

ثم ان الامبراطورة افدوكسيا زوجة الامبرطور اركاديوس زينت مدينتها بقصر انيق وحمامات بديعة وجاء بعد ذلك ثيودوسيوس الثاني فشجع الصناعة وأبرز للوجود عدة أعمال عظيمة وفي أيامه أعيد بناء أسوار القسطنطينية بغاية الاحكام وزينت المدينة بساحة فسيحة وقصرين .

وكان عصر الامبراطور يوستينيان من ازهر العصور في الصنائع اليونانية وقد أمتاز هذا الامبراطور بشغفه وغيرته على الفنون والصناعة حتى لقبه معاصروه بالمصلح الكبير ومن أعماله التي حفظت له مآثره بين ثنايا التاريخ تشييد الهيكل العظيم اكراماً (للحكمة الابدية) وهو معروف بكنيسة آجيا صوفيا وقد احرقت هذه الكنيسة الكبرى مرتين بعد نفي يوحنا فم الذهب اثناء ثورة الاحزاب الزرقاء والخضراء . فاستخدم يوستينيان عدداً من الصناع في اعادة بناء الكنيسة ولكن بالأسف خاب مسعاهم ففي سنة ٥٥٨ بعد تدشينها باحدى وعشرين سنة حدثت زلزلة دمرتها تدميراً فاستخدم الامبراطور صانعاً ماهراً اسمه ازيدور ابن اخ احد الاولين في اعادة بنائها وزاد ارتفاع القبة عشرين قدماً عما كانت عليه قبل تدميرها واستبدل شكلها المستدير بشكل بيضوي ومع ان القبة كانت كأنها معلقة في الفضاء ولكن دائرتها كانت مرتكزة على أربعة أقواس قوية قائمة على أربعة اعمدة ضخمة يشدها من الشمال والجنوب اربعة اعمدة اخرى من حجر الصوان طول الواحد منها نحو ٤٠ قدماً وكان يحيط بالقبة الوسطى الكبرى اثنتان كبيرتا الحجم وست صغيرة وقد رسمت ساحتها على شكل صليب يوناني داخل مربع قائم الزوايا ولكنها بيضوية الشكل من الداخل .

ثم ان يوستينيان شيد بخلاف هذا البناء الشرقي الطراز اكثر من خمس وعشرين كنيسة في القسطنطينية وضواحيها وأقام تمثالاً لنفسه يمثل الامبراطور ممتطياً جواداً وواقفاً وقفة المدافع ووضعه على عمود الساحة امام كنيسة آجيا صوفيا وأعاد أيضاً بناء القصر وزينه زينة بديعة بالبرنز والرخام الكثير الالوان اشارة إلى نصراته العظمى في أفريقيا وإيطاليا .

هذه الخلاصة التاريخية استخرجناها من جبون وغيره من أهل التاريخ المعتبرين لنفيد القارىء عن بهاء هذه المدينة المسيحية ومجدها عند ما ذهب اليها فم الذهب واشتهر وعظه فيها .

(وقد ظلت القسطنطينية من عصر هرقل حتى ساعة سقوطها حافظة

لجمال اشكالها وتأنق رسومها و بعد صيتها وسمو عظمتها إلى أن قضى القدير بما قضى حيث اصبحت مقر الخلافة الاسلامية وقد تحولت الكنيسة الكبرى بها إلى جامع آيا صوفيا المشهور لكي تؤدى فيه الفرائض الاسلامية وذلك منذ دخل محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣ م ظهر أحد الأيام وما أتى عصر ذلك اليوم حتى ارتقى أحد المسلمين أعلا قبابها واذن عليها (الله اكبر . حي على الفلاح)

الفصل الخامس

﴿ فم الذهب بطريكا ﴾

في سنة ٤٩٥ م توفى الامبراطور ثيودوسيوس الكبير فانتقلت مملكة الشرق إلى ابنه اركاديوس الذي كان شاباً ضعيفاً لا بصيرة له وكان يصرف حياته في الكسل والاهمال لانه كان عاجزاً ضعيف الرأي وغير ثابت في مبادئه بل كان منقاداً لسلطة رئيس وزرائه يوترو بيوس . وكان يوجد وقتذاك عذراء يتيمة تدعي افدوكسيا ابنة قائد شيخ خدم في جيش ثيودوسيوس وكانت هذه الفتاة على جانب عظيم من التقوى وقد انفردت عن العالم وعكفت على المطالعة والدرس .

واتفق مرة بينما كان الامبراطور اركاديوس داخلا إلى قاعته رأى تمثال عذراء جميلة فافتتن بها وعلق قلبه بحبها ولذلك استدعى يوترو بيوس وقص عليه امره ومع أن يوترو بيوس كان قد وضع تمثال افدوكسيا عمداً بغية إيقاعه في هواها ولكنه حاول جهد استطاعته في كتمان الامر ولما شدد عليه الملك اخبره عن افدوكسيا فللحال استدعاها واقترن بها . غير أن فضائل افدوكسيا لم تلبث معها بعد زواجها بل انقلبت إلى رذائل وغير طباعها البلاط الامبراطوري فأمست امرأة ذات تسرع وامتلأت محبة للعجب والمطامع الدنيوية .

وفي ذلك الوقت توفى بطريرك القسطنطينية و بموته أخذ الجميع يتحاورون على هذا الكرسي حتى ان ثاوفيلس البطريرك الاسكندري كان يود بكل

اهتياء ان ينال هذا المركز صديقه ايسيداروس ولكن خاب ظن الجميع لان وتروبيوس ذهب مرة إلى مدينة انطاكية فسمع كثيراً عن فم الذهب وعن بلاغته وبراعته واشتاق إلى سماع وعظه ولذلك قصد الكنيسة وحال سماعه اياه ارتعد لتوبيخ ضميره واندهش من علو كعبه وسامي مداركه . وعند رجوعه الى القسطنطينية ذكر اسمه للامبراطور الذي لما سمع به اختاره لبطريركية الكرسي الانطاكي ومع أن ثاوفيلس بطريرك الاسكندرية عارض في هذا الانتخاب ولكن كل قس وشعب القسطنطينية صمموا بالاجماع على تزكية فم الذهب (أي اختياره) وانتخبوه في غيابه لهذا المركز الخطير.

وبناء على ذلك ارسل الملك الى الأسقف فلابيانوس الانطاكي يأمره بارسال فم الذهب الى القسطنطينية ولكن اجتهاد الأسقف ذهب عبثاً لان يوحنا ابى كلية أن يمتثل لهذا الأمر وذلك اتضاعاً منه ومحبة في مركزه الوضيع في انطاكية ولانه كان على معرفة بصعوبة الواجبات الملقاة على عاتق كل من يتأهل لهذه الخدمة وعلمه بصعوبة قضاء الله على من يهملون القيام بواجباتها. وفي القرون الاولى كان الاتقياء يخشون جداً من المناصب العالية في الكنيسة بدليل قول أوغسطينوس « لا شيء في هذه الأيام التي نحن عائشون فيها أ... ... وأعظم خطراً من وظيفة الأسقف ولكن مع ذلك لا يوجد شيء ... الله نظيرها ولا ... اذا أجريت ... حسب تعيينه تعالى» وكتب مرة أحد ... فم الذهب الى راى أبى قبول الأسقفية يقول له « لم تقبل هذه الخدمة التي ... في الحصول عليها كثيرون لانك تعتبر صواباً أنه خير لنا أن ننظم سياسة أنفسنا من أن نسوس الآخرين . ونعلم ان الحرية توجد في العيشة الهادئة البسيطة لا في مركز رفيع وتعتبر عيشة كهذه قصاصاً اكثر من كونها جزاء فاصرف كل غيرتك واجتهادك في الاعتناء بنفسك » اه

أين هذا مما نراه في أيامنا الحاضرة حيث اصبحت الخدمة الدينية مطمح انظار الكثيرين الذين سدت في وجوههم أبواب الأشغال العالمية فاتخذوا لانفسهم صورة التقوى وتزيوا بالزي الكهنوتي وتراهم يسعون وراء الخدمة الدينية جاعلين إياها من الهنات الهينات غير عالمين بشدة القضاء على من يهملون القيام بواجباتها فهم لا غرض لهم الا الربح الدنيوي والمطامع الاشعبية

ولما علم وتروبيوس أن يوحنا أبى الحضور الى القسطنطينية وعلم ان أهل انطاكية يمانعون جداً في أخذه لانهم كانوا يعتبرونه فخر مدينتهم ومجدها عمد الى الحيلة فأرسل واستدعاه ليقابله في كنيسة خارج المدينة . ويوحنا على غير فكر منه في شيء ما أجاب دعوة هذا الرسول وتوجه لمقابلته في تلك الكنيسة ولكن ما وصلها الا وقد اركبه الرسول في عربة بكل تجلة واكرام واعلمه بالامر وأسرع به رغماً عن مقاومته [1]

(١) ولعل ابلغ وصف لذلك السفر الغريب يوجد في كتاب انكليزى اسمه " Cathering Clouds " أى (الغيوم المجتمعة على افق الكنيسة) تأليف الحبر العظيم Dean Farrar (القس فرار الرئيس السابق لكاتدرائية كنتربرى ام كنائس انكلترا . فيصف المؤلف دخول يوحنا الى بطريركية القسطنطينية واحترام الشعب الشديد له وحيرته واستغرابه وكيف ان ولاة الامور وعلى الاخص يوتروبيوس انتظروا ان يشكرهم يوحنا على ... على ان ما حدث منه ... لما توهموا فلما غضب عليهم غضباً شديداً الا انه شعر اخيراً بانه « ... العذل » فخضع لارادتهم رغم انفه . ثم وصف ذلك القس الاسقفى امتناع البطريرك ثاوفيلس بادىء بدء عن تقديس فم الذهب لاسباب شخصية وما الذى حمله على ارضائهم الخ اه

تعال بنا الى القسطنطينية تجد عظماءها ورؤساءها واشرافها والرعاة قد حفوا لاستقبال بطلنا وهم مملوءون من الفرح وهناك رسموه بطريركاً سنة ٣٩٨ م وعقب رسامته زاره الامبراطور اركاديوس طالباً منه البركة فباركه وقال له « إنني لما أرى النير الثقيل الذي وضع عليّ وانأمل اني لا استحق هذه الدرجة السامية نظراً لضعفي وحقارتي وان مثل هذه الرتب العالية تقتضي استحقاقات عالية كما إن الاحمال الثقيلة تستلزم اكتافاً قوية تضطرب عند ذلك نفسي وترتعد جداً . ولكن من حيث أن ملك العالمين ورب الارباب الذي لا تدرك أحكامه قد شاء أن يقيمني راعياً لهذه الرعية العظيمة فمن ثم أطلب من جلالتك أيها الملك العظيم أن تسمع لصوتي . صوت من أقامه الله راعياً لك ولشعبك . على أنه كما أن الضرورة تلزمني بأن أورد لكم ارادة الله ينبغي لكم أن تصغوا لكلامه باحترام وطاعة ولكون سيدنا يسوع المسيح قد أجلسني على هذا الكرسي لذلك ابتدىء كرازتي وتعليمي بقولي للجميع ما قاله يوحنا المعمدان للجميع « توبوا » لانني في عظاتي لا أداري أحداً بل أتكلم بكل حرية وسأورد لكم كل ما تلزمني رتبتي بإيراده فإن قبلتم نصائحي فبلا شك تسرونني وتبهجون الروح القدس أيضاً وتجنون ثمرة الخلاص وان لم تقبلوا فيصيبكم أنتم ضرر جسيم وسيكون حظي الحزن والبكاء على ضرركم» اهـ

فابتهج اركاديوس من حريته في الكلام وسر الحاضرون وشكروا الله الذي أرسل لهم هذا الراعي الصالح وبدأ البطريرك بالقدوة الصالحة أمام شعبه فلم يكن يهمه الا تقدمه في الفضيلة ولم يهتم بشيء يخص نفسه بل اكتفى بالمآكل البسيطة والملابس الخشنة . ثم أخذ يلقي الخطب الرنانة والمواعظ المؤثرة . وحينما كان يقف للوعظ كنت ترى الناس يأتون اليه أفوجاً أفواجاً من منازلهم ومحلات أشغالهم حتى ومن محافل مسراتهم اليومية فكان يأخذ بمجامع ألبابهم بفصاحته ويستولي على افئدتهم بقوة بيانه المعهودة. وكانت عظاته تدور على الرذائل التي كانت متملكة على شعبه لينزعها ويغرس عوضاً عنها الفضيلة ، وكانت اكثر أقواله ضد رذيلة البخل والحث على الرحمة وافتقاد المساكين . واذ عرف ان الوعظ لا يثمر ما لم يكن الواعظ متمماً لما يبتغي من الغير عمله مجتنباً لما يروم ان يجتنبه الآخرون فكان يوزع ماله على الفقراء والمعوزين مفتقداً اياهم في بيوتهم كثير الزيارات للمرضى والمسجونين لتخفيف آلامهم. ومن دلائل ذلك انه أسقط من المصاريف كل مصروف غير ضروري وجعل يسعى في بذل الدراهم في سبيل البر والاحسان فاقام مستشفيات ومنازل ولا سيما للغرباء الذين انهكتهم الامراض أو غيرها من المصائب. وكانت هذه المساكن عظيمة جداً فكان فيها أطباء وممرضات أو (تمرجية) ومعلمون للصنائع حتى غدت كاملة من كل وجه[1] وكان فم الذهب يتردد كثيراً على تلك المساكن (الملاجىء) التي التجأ اليها الفقراء والمساكين مفضلاً اياها على مساكن

(١) قال مؤرخ «والحق ان هذه المنازل (الملاجىء) التى اقيمت لغوث المتضايقين وتعزيتهم أو تهذيب الاولاد وتربيتهم انما هى نتيجة روح الديانة المسيحية لاننا نجد فى اقصى قرون الكنيسة المسيحية ان المسيحيين كانوا يجمعون صدقات للفقراء وفي القرن الثانى على عهد يوستينوس الشهيد وترتوليان كانت تجمع الصدقات لهذه الغاية عينها بعد العبادة الالهية . وقبل زمان يوحنا فم الذهب،عندما جحد الايمان يوليانوس الملقب بالمرتد وجعل يعارض الديانة المسيحية ويحاربها نسب نجاح الانجيل الى المنازل الخيرية وحرض الوثنيين على الاقتداء بالمسيحيين من هذا القبيل ولكن فانه ان في الديانة المسيحية نفسها قوة الهية غريزية» اهـ

الكبراء وقصور العظماء وكان يعلمهم بالرحمة والاحسان عوضاً عن ان يطردوا من بيت إلى بيت ومن مدينة إلى أخرى .

هذا هو المثال الاعلى للمحبة المسيحية ولا سيا محبة الراعي لرعيته. كانت محبة فم الذهب لاولاده عظيمة جداً حتى انه قال لهم يوماً وهو يعظ « إني لا اشتهي ان تعاينوا فرط محبتي لكم فاعلموا أن قلبي لا يهوى شيئاً كما يهواكم فاني أحبكم أكثر من عيني ولو كان لي ان أعطيكم بذهاب بصري نوراً لآثرت العمى لاجلكم . فلا يسمح الله تعالى ان يرتكب أحدكم خطية على انه اذا زال ظهرت له وفور محبتي بغزارة دموعي وقد اهملت الاهتمام بخلاص نفسي على نوع ما وذلك من قِبَل هذه المحبة لان كثرة الدموع التي اذرفها من أجلكم لا تدعني ابكي على نفسي. وحينما اراكم سائرين في الفضيلة ونامين فيها يشغلني فرحي بذلك عن التأمل في آثامي وان فرحي يتحول الى حزن حينما اراكم على خطية فواحسرتي ! ! انني أسأل الله بشوق ما عليه مزيد لخلاصهم قبل ان أطلب خلاص نفسي لاني احتسب خيري كله قائماً في خيركم فليتني استطيع ان افتح لكم صدري وتعاينوا ما هو داخله . فحقاً كنتم ترون صوركم وصور بنيكم مرسومة على لوح القلب. وقد تسعكم جميعكم هذه المحبة التي هي أوسع من السموات » اه

ذكرنا هذه الحكايات على سبيل المثال وأظهاراً لتلك الروح المقدسة التي كانت تسكن قلبه والنار التي كانت تتقد في فؤاده ولكي يعرف الرعاة وجوب المحبة لرعيتهم على هذا المنوال .

وكان الجميع يحبونه أيضاً محبة عظيمة حتى انهم اجمعوا على احترامه رغماً

عن تبكيته لهم على ما يرتكبون من انواع المآثم وكثيراً ما كانوا يتجاوزون حد الاعتدال في اظهار اخلاصهم له وشديد تملقهم به بطرق غير لائقة . من ذلك ان أسقف غلاطية زار مدينة القسطنطينية مرة فمن باب الاحتفاء به دعي الى ارتقاء منبر الخطابة في الكنيسة ولكن ما صعد هذا الأسقف على المنبر ورآه الشعب متأهباً للخطابة إلا وصاحوا صيحة واحدة ونادوا بصوت واحد قائلين « يوحنا. يوحنا » (أي لا نريد سواه) وعلى ذلك نزل هذا الأسقف واضطر فم الذهب أن يحل محله وهو متأثر ومتأسف وغير راض بذلك منهم بل كان الغضب آخذاً من فؤاده كل مأخذ لما حصل

اما الامبراطورة افدوكسيا فقد اهتمت باديء بدء بفم الذهب وبالغت في الترحيب به لاسيما لما اظهره من الاهتمام باحياء معالم الكنيسة بحسن ارادته وتجديد بهاء فخرها ورونق مجدها كان محل اعجاب الامبراطورة به وازديادها في اكرامه حتى انها كانت تهتم باقامة حفلات دينية في كنائس العاصمة وتدعوه للقيام بالخدمة ومن ذلك انها أقامت مرة حفلة دينية في كنيسة ولما أتى وقت الوعظ وقف خطيبنا المشهور واندفع بتيار حماسته المعهودة (وبشيء من المبالغة) وقال « ماذا اقول أو بماذا انطق انني لفي غاية السرور والبهجة والحبور بل في حالة جنون ولكن جنوناً كهذا خير من حكمة الحكماء وفهم الفهماء . لقد جمعت بصدري سوامل الانشراح فتهت في بحار الأفراح . بل صرت ثملاً بخمرة المسرات الروحية ونشواناً بالبهجة القلبية. فماذا أقول أو ماذا أصف او ماذا اذكره اولاً ؟ هل ابدأ بوصف فضيلة الشهداء أو بنشاط وغيرة الامبراطورة أو اجتماع هؤلاء الأمراء أم أظهر للملأ خذلان الشيطان وتبديد

شمل الأعداء الألداء ام أصف انتصار الكنيسة أو معجزات المصلوب أو مجد الآب أو نعمة الروح القدس؟ (وبينما كان آخذاً في الوعظ دخل الامبراطور اركاديوس الى الكنيسه بحشمه فانتظر الواعظ حتى يستقر الملك في مكانه . أما الامبراطور فخلع تاجه وأمر عساكره بنزع السلاح وسجد وأمرهم بالسجود احتراماً لله العلي. ثم استدرك الواعظ كلامه فقال) أقول لكم اقتدوا بفضائل الشهداء وشجاعتهم وغيرتهم وايمانهم في الضيقات أجل. لاتوجد الآن نيران نلاقى فيها مثل أولئك الشهداء أو حيوانات كاسرة نطرح لها فتفترسنا وانما النيران في داخلنا والحيوانات الكاسرة كامنة في قلوبنا أي هوى النفس والغضب والحسد وكل الشهوات الشريرة -- فلنقاوم هذه جميعها حتى نفوز بالأمجاد السماوية الأبدية بمراحم ونعم ربنا يسوع المسيح الذي له المجد » اه

وقد حدث في السنة الأولى لبطريركية فم الذهب زلزلة هائلة سببت خراباً عظيما في المدينة ففر كثيرون من الاهالي تاركين بيوتهم خوفاً من الموت وآخرون جعلوا هذا الارتباك وسيلة للنهب والسلب وكثيرون من الغرباء الذين حازوا المناصب العالية والأموال الكثيرة قد اختلست أموالهم فلاقاهم الفقر المدقع في لحظة. أما فم الذهب فسعى لكى يأتي بهؤلاء الى التوبة ولذلك خاطبهم ذات يوم قائلا « انظروا كيف اننا الآن محاطون بالخراب من كل جانب وقد اصبحت هذه المدينة مشهداً عظيما للدمار. كثيرون من الذين لم يهمهم إلا جمع الأموال والذين صرفوا لياليهم كلها في السعي وراء الغنى قد أضحوا الآن مساكين لا مال لهم ولا بيت يجمعهم . قد أنذرتهم انذاراً خطيراً يسحق أقسى القلوب غير أن وقع هذه الرزية التي لا تزال نتائجها امام أعينكم لم يؤثر فيكم كثيراً فاني أراكم معجبين وفاترين كما كنتم قبلاً . فلنأت الى الرب جميعا بغية الحصول على الشفاء . نعم هلموا معي لأني وان كنت طبيبا احتاج الى الشفاء نظيركم وانا عرضة لنفس الاهواء التي انتم عرضة لهـا فانا أيضا في حاجة الى الايمان المخلص الذي يقدر وحده أن يخضع شهوات القلب الشرير » اه

ولما كان يوم الجمعة مفرزاً في الأيام الخالية للاجتماع تذكاراً لآلام المسيح ظن فم الذهب ان الجموع ستجتمع في الكنيسة ولكنه رآهم يهرعون لاقامة الملاعب والمراقص التي استعدوا لتجهيزها استعداداً عظيما فاغتاظ لذلك جداً ولما أتى يوم الأحد تحركت روحه في داخله وانتصب في وسط الجمع ووجه اليهم فصيح وعظه وقال « أفي اليوم الذي قدمت فيه تلك الذبيحة العظيمة. اليوم الذي صلب فيه مخلصكم. اليوم الذي تاب فيه اللص. ورفعت اللعنة . وغفرت الخطية. وفتحت السماء . وأجريت المصالحة بين الله والناس، اليوم الذي أبطلت فيه الأمور القديمة وصار كل شيء جديداً ، اليوم المفرز للصوم عندما وجب عليكم الاعتراف بخطاياكم وتقديم الشكر لمعطي كل الخيرات وواهبها أفي هذا اليوم المبارك تنسون اخوتكم وتسمحون للشيطان أن يذهب بكم الى ملاهيه ؟ ألستم تعلمون انكم اذا سلمتم الى خادم دراهم تجعلونه مسئولا عن الفلس الأخير منها. هكذا أقول لكم ان الله سيطلب منكم أن تقدموا له حساباً عن كل حياتكم. ألم تروا بعض الوالدين يأخذون اولادهم الى المسرح و بذلك يرمونهم في الهاوية ؟ فعليّ ان اذكركم بما سبق وذكرته لكم مراراً قبلا وهو : يجب ان تحضروا اولادكم الى بيت الله وتعودوهم على ذلك منذ نعومة اظفارهم» اه

ويلوح ان هذا الانذار أثر في القوم لانه قال عقب ذلك « انني بينما اخاطبكم أرى البعض منكم يضرب جبينه بيده ولاشك ان هذه علامة على ماتظهرونه من الندم وما تشعرون به من توبيخ الضمير في داخلكم واني لاشكركم على هذه الاحساسات الحية واظهاركم الأنعطاف نحواخوانكم بالشفقة والحنان ولكن واجب عليكم اكثر من ذلك. ولا تقولوا لي ولا في انفسكم انه لم يفقد ولم يضل من اخوانكم إلا القليل فقط. تأملوا في ذلك. ألم يترك الراعي الصالح القسعة والتسعين في البرية ويذهب ليبحث عن الخروف الواحد ؟ افتكروا في استحقاق النفس الواحدة فكل نفس ثمينة جداً وعزيزة في عيني الله والسيد المسيح إذ أن الله من اجل تلك النفس بذل ابنه الوحيد فدية. بل من اجل كل نفس سفك المسيح دمه . فتصوروا أي ثمن غال دفع عن كل نفس؟ » اه

وكان في الكنيسة الكبرى بعض النساء الصالحات اللواتي فقدن رجالهن في سن الحداثة وتفرغن بالكلية لخدمة الله. ولما كانت عادات الشرق تحول دون تعليم الرعاة للنساء استخدم فم الذهب النساء المذكورات للقيام بخدمة النساء وأمر معموديتهن (كالنساء المذكورات في ١ تيموثاوس ٤ : ٩ و١٠ وكان يختار في الغالب اللواتي كن أمهات واختبرن التربية لكي يقمن بتربية النساء التربية الدينية حق قيام. ومايأتي صورة صلاة له في هذا الشأن: « اللهم الأبدي أبا ربنا يسوع المسيح باريء الرجل والمرأة الذي ألهمت بروحك القدوس مريم ودبورة وحنة وخلدا (النبية) والذي اكرمت المرأة بجعلك ابنك يولد منها انظر الى أمتك هذه وامنحها روحك القدوس . طهرها من كل شهوات الجسد والعقل الشريرة لكي تخدمك تمجيداً لك وتسبيحاً للسيد المسيح » (آمين) اه

مما لا خلاف فيه ان هذا البطريرك الجليل يعيد الينا من بعض الوجوه أعمال بولس الرسول . ولقد اهتم البعض بمقابلتهما ببعضهما حتى دعوا فم الذهب «بولس الثاني» لانه لم يكتف بالاعتناء بخير ابناء جنسه اليونانيين فقط بل وبأمة الغوطيين الذين كانوا يسكنون القسطنطينية وكان عدد عظيم منهم في خدمة الجيش الروماني . هؤلاء اهتم بهم اهتماماً شديداً وكان في بعض الاحيان يجعل الصلاة في الكنيسة الكبرى باللغة الغوطية حتى جذب منهم الكثيرين وتلمذ عدداً ليس بقليل ورسم منهم رعاة كانوا يباشرون الخدمة بلغتهم مما استدعى اعجاب اليونانيين النبلاء ولذلك وقف مرة بعد نهاية الخدمة الغوطية وقال « يا ليت الوثنيين كانوا هنا هذا اليوم فانهم لو كانوا معنا الآن لرأوا قوة ذلك المصلوب وقوة الانجيل وقوة الايمان . اين تعاليم افلاطون وفيثاغورس وفلاسفة أثينا . قد تلاشت كلها ولكن اين تعاليم صانعي الخيام وصيادي السمك ؟ ليست في بلاد اليهود فقط بل يمكننا سماعها أيضاً باللغات الوثنية كما سمعتموها الآن وهي تشرق ببهاء اكثر من الشمس . ألا ترون ان السكيثيين والزاسيين والهنود والمغاربة والبريطانيين المستوطنين أقصى أطراف العالم حاصلون على هذا التعليم الجليل ؟ قد ترجم الانجيل إلى لغتهم فوجد فيه بعضهم الحكمة الحقيقية . أينما ذهبتم تسمعون أسماء صيادي السمك الجليليين من كل لسان . وذلك ليس لان هؤلاء الصيادين كانوا أفضل من غيرهم من البشر بل من جراء قوة المصلوب الذي اعد الطريق لهم والذي صير

الجاهل احكم من الفلاسفة . فلا يزعم احد ان الاتيان بالبرابرة هنا لاجراء الخدمة الالهية في لغتهم عار على الكنيسة بل لنتحقق ان هذا هو مجد الكنيسة ودليل قوة الايمان القويم واتمام قول الكتاب الالهي -- في كل الارض خرج صوتهم والى أقصى المسكونة كلماتهم » اه

ولم يكتف بذلك بل سعى في إيصال الانجيل الطاهر إلى البلاد الفينيقية أيضاً حيث كانوا يباشرون عبادة الاصنام بما فيها من خرافات وأباطيل فألف بعثة تبشيرية لكي ترشد اولئك القوم إلى الطريق القويم وقد لاقت هذه البعثة في سبيل انجاز مهمتها هذه عذاباً شديداً واضطهادات مرة . وكان أهالي فينيقية يقيمون الصلوات تحت أشجار فاستصدر أمراً من الحكومة بقطع تلك الاشجار ابتغاء تسهيل السبيل للكرازة بالانجيل . قال أحد كاتبي تاريخ حياته « والحق ان فم الذهب كان يسير للغاية بهذه الاعمال التبشيرية لان مساعيه في هداية الوثنيين كانت احب لديه وأنجح من عمله بين أرباب السياسة وكثيرين من الكنسيين في عصره » اه وفي غيرته هذه على خلاص الخطاة نتمثل غيرة بولس الرسول المتقدة في قوله « ويل لي ان كنت لا أبشر » .

الفصل السادس

« سقوط الوزير العظيم »

في ذلك الوقت كان قد تعظم شأن الوزير يوتروبيوس وارتفع مركزه وهو الذي استحضر فم الذهب من انطاكية إلى القسطنطينية كما سلف إلا أنه لما غدا ثاني الامبراطور وصار له النفوذ التام والحل والربط العام طغى وبغى وتكبر وتجبر وخال الدهر يستمر مسالمه فكانت كل أفكاره متجهة نحو استعباد الرعية بأسرها كبيرها وصغيرها غنيها وفقيرها ولم تكن له غاية سوى إشباع شهواته وحشد دراهمه وكان يبيع الوظائف ويوقع بالاغنياء ويحط من شأن رفعتهم مظهراً حماقة تامة لان الذي يترقى كما ترقى هو كان لمصلحته أن يسالم الجميع. وكان محاطاً بشرذمة من الاشرار الذين كانوا عوناً له في ارتكاب هذه الاعمال المخالفة للفضيلة . ولما اطلع فم الذهب على هذه المساوىء أخذ ينتهر الوزير ويوضح له سوء تصرفه وفساد عمله لكن الوزير ضرب بنصائحه عرض الحائط ولذلك قال له « ان الذي يتكلم معك باخلاص انما هو يظهر محبته الحقيقية لك ولكن الذين يملقونك لا يريدون لك الخير » اه

وكان لحكام القسطنطينية المسيحيين عادة تشبه قانون مدن الملجأ في العهد القديم (تث ١٩) وهي ان كل من يرتكب ذنباً يوجب قتله ويهرب ويلتجىء إلى الكنيسة فانه يحيا ولا يقتل. وصار هذا القانون معمولاً به إلى أيام اركاديوس وزوجته اودوكسيا ولكن يوتروبيوس الذي كان يسعى في أن يمنع كل خير عن الرعية سن قانوناً لإبطال هذه العادة وألغى حق الناس

في الاحتماء بالكنائس ولذا أبغضه الجميع على اختلاف طبقاتهم ولم يصبح له في المملكة صديق واحد بل الكل صاروا يتوقعون له كل الشرور و يتمنون له الوقوع في أعظم المصائب وخصوصاً عدوه الألد تريبجلت رئيس جماعة الاستغوطيين [1] الذين قام سعدهم وزاد عددهم وارتفع مجدهم في ذلك الحين فانه كان يبغض يوترو بيوس بغضاً شديداً و يعمل دائماً على نكايته .

ولما جاء تريبجلت إلى العاصمة ورأى خضوع الجميع لهذا الرجل الزنيم زحف بجيشه على آسيا الصغرى وأراد أن يفتك بها فلما سمع يوترو بيوس بذلك أراد ان يغريه بالمال ولكنه أبى إلا الحرب والقتال فأرسل يوترو بيوس إلى غانياس قائد الجيوش المحافظة لكي يذهب و يفتك بتريبجلت . وكان غانياس ايضاً يبغض يوترو بيوس فأجمع الجميع على معاداته ولذلك نبذ غانياس سلطته واشترك مع صديقه في العصيان . وأرسل غانياس إلى الملك يقول له اني لا أرجع عن الحرب ولا أنزع السلاح ما لم تخلع الوزير يوترو بيوس. فلما سمع أهالي المدينة هذا الخبر وكلهم أعداؤه هاجوا وماجوا وازدحموا حول قصر الامبراطور طالبين تسليمه للانتقام منه . وكان يوترو بيوس قد اتهم باهانة كرامة الامبراطورة افدوكسيا فأقيمت عليه شهود بذلك وصدر الامر باعدامه وهكذا في لحظة من الزمان سقط يوترو بيوس من مركزه السامي إلى أدنى درجات الذل والهوان ولم يبق له ولا صاحب يقف معه . ولما كان خائفاً من

(١) ان القوط المشهورين الذين غزوا المملكة مرة بعد مرة (وديانتهم هي ديانة آريوس الذي حكم عليه في مجمع نيقيه) لم يكونوا كلهم من قبيلة واحدة بل كان منهم فرع يقال له الاستغوط وآخر اسمه الفيسيغوط . . . الخ . اه

سطو الجمهور الناقم عليه وهو في بيته هرب منه ملتجئاً الى الكنيسة ابتغاء الحصول على الأمن الذي حرم الكثيرين منه ولكن لم تنفعه استغاثته لان أعداءه طاردوه حتى باب الهيكل وهجموا عليه هناك واجتهدوا في سحبه من مخبئه وتسليمه الى الموت مذكرين إياه ان شر مسعاه انقلب على هامته فباطلاً الآن يلتجيء و يحتمي في هذا المكان .

أما ذلك المسكين فكان تارة يتوارى خلف المذبح والخوف ملء فؤاده وأخرى يمسك بأذيال ملابس البطريرك وهو يرتعد فرقاً . يستغيث ولا مغيث و يستشفع ولا من يشفع . حينئذ تأثر فم الذهب بعامل الشفقة من هذا المنظر الرائع فصعد الى المنبر للوعظ ونظر أولاً الى الجمهور العظيم الهائج ثم الى الوزير المنكود الحظ واقفاً أمام المذبح وقال « أين المجد الذي كان محوطاً به الوزير؟ أين المشاغل التي كانت تنير سبيله وأين هتاف الشعب له وأين تمليقهم إياه ؟ قد أصاب هذه الشجرة عاصف شديد قصف أغصانها وأتلف أثمارها وهز أصولها. أين الاصحاب والمراؤون الذين تظاهروا بالانقياد والخضوع؟ قد ذهبت كل الاشياء كذهاب أحلام الليل عند طلوع الفجر . باطل الاباطيل قال الكتاب الكل باطل. اكتبوا ذلك على ارديتكم وا كتبوه على أبواب حجركم وعلى حوائط بيوتكم وعلى ضمائركم» ثم قال مخاطباً يوترو بيوس «ألم أقل لك دائماً ان الغنى خداع ولكنك لم تشأ ان تصغي إليّ؟ ألم أقل لك ان الحشم يغمطون النعم ولكنك لم ترد ان تصدقني؟ فالاختبار يعلمك الآن انهم اكثر من ذلك كثيراً وانهم يطلبون قتلك. فالغنى الذي كنت تحبه قد اتى بك إلى هذا المكان وجعلك ترتعد الآن امام اعيننا اما الديانة التي تبغضها فقد فتحت

الك ذراعيها وظلالك. المسرح الذي كنت تحامي عنه وتغضب عليّ بسببه قد أذلك وحط شأنك. والملعب الذي أنفقت عليه الاموال قد أشهر السيف عليك. لست أقول هذه الاشياء لكي أفتخر عليك بل لكي أعلم الذين يسمونني كيفية طلب السعادة الحقيقية» .

ثم جعل يخاطب الشعب بقوله «من مجد الكنيسة العظيم ان ترحب بمن كان عدوها قبلاً وان تحامي عمن يطارده الجميع من كل جانب. فهي تعرض بعينها اسقط الامبراطور وهياج الشعب وبغض الجميع. رب قائل يقول أيحق لشخص شرير أن يلمس المذبح ؟ فأجيب ألم تلمس الخاطئة قدمي المخلص نفسه ؟ ليقترب كل غني إلى هذا المنظر وليتعلم ان لا يتذمر من جرى فقره بل يشكر الله لان ذات فقره ملجأ ومرفأ له» اه وكان لهذا الكلام تأثير عظيم في النفوس حتى ان الكثيرين قالوا وهم يذرفون الدموع «نتوسل الى الامبراطور لكي يعفو عنه» ولكن عداوة الجمهور ليوتروبيوس كانت شديدة جداً فتجمهروا عليه ثانية وجعلوا يصرخون بهياج طالبين قتله وقد دافع عنه فم الذهب كثيراً ولكن لم يجدِ ذلك نفعاً بل أخذوه عنوة ورحلوه الى جزيرة قبرص حيث قتل هناك شر قتلة .

وفي سنة ٤٠٠ م انعقد مجمع تحت رئاسة فم الذهب مؤلف من أساقفة آسيا الصغرى وبلاد اليونان. وقدم له رقعة شكاية من أسقف يدعى يوسيبيوس ضد أسقف أفسس بأنه يستبيح السيمونية[1] وغير ذلك ولكن فم الذهب

[1] السيمونية (أو بيع الرتب الكنسية) داء تفشى بين رؤساء الكنائس المسيحية في القرون المظلمة فكان الرؤساء الذين لا خلاق لهم والذين لم يسيروا حسب اوامر الكتاب

استعمل الحكمة في ذلك شأن القضاة العدول وقال للمشتكي « إياك والظلم فان كثيرين يشتكون مبعوثين على ذلك بالغضب والهوى ثم يتعذر عليهم إثبات دعواهم » ويظهر ان دعوى المشتكي كانت صحيحة بدليل ان عقلاء أفسس أرسلوا يستدعون فم الذهب بكتاب يقولون فيه « نلتمس منك أيها الآب المحترم ان تأتي الينا في الحال وتسعى في اصلاح كنيستنا بحيث تصير بعنايتك أهلاً لان تدعى كنيسة الله » وعند وصول هذا الكتاب كان مريضاً ولكنه إذ كان ينظر الى نفسه كوكيل اؤتمن على سرائر الله لم ير بداً من الذهاب فوكل امور كرسيه الى سافريانوس أسقف جبلة وسافر سنة ٤٠١ م وفي اثناء سفره هاجت الزوابع على السفينة وانقطع عنها الزاد حتى وصل الى أفسس وقد أعيي من التعب والجوع .

ولما وصل الى افسس سكن الثائرين بحكمته وأقواله الهادئة وبعد ان فحص دعوى الذين كانوا يستعملون السيمونية خلع ستة أساقفة نالوا رتبة الاسقفية بالمال ثم رسم لهم أسقفاً وهكذا طفق يزيل الخلل وينزع المساوىء وقاسى في سبيل ذلك متاعب جمة ولكنه استظهر عليها ورجع الى القسطنطينية بعد ١٣ شهراً حيث رأى اضطرابات كثيرة ومصائب عديدة تنتظره .

ان حياة «فم الذهب» جديرة بأن تسمى «سلسلة آلام وأوجاع» ولقد أعرضنا عما لازم كل أعماله المذكورة آنفاً من الاتعاب لاننا أفردنا لها فصلاً مخصوصاً نبحث فيه عن أسباب بغض الكثيرين له وتدبيرهم المكائد ضده

الالهي ينقاضون جعالة ممن هم دونهم في الرتب لاجل ترقيتهم . ودعيت بالسيمونية نسبة الى سيمون الساحر الذى اراد ان يشترى مواهب الروح القدس من الرسل بدراهم . راجع (أعمال ٨ : ١٨ — ٢٤) اه

لنعلم ان عبيد الله لا بد ان يحيط بهم الضيق من كل جانب ولا سيما في سبيل تأدية خدمة الحق . وكلنا يعلم قول السيد لرسله « في العالم سيكون لكم ضيق » ومن ذلك اختبار بولس الرسول الذي كان يعبر عنه بهذه الكلمات التي كتبها قبيل استشهاده أي في أثناء أسره الثاني برومية « وجميع الذين يريدون ان يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون » اذاً والحالة هذه هل نهمل الامانة ونضرب عن إلقاء النصائح الدينية خوفاً من الاضطهاد الذي يقع علينا ؟ كلا ثم كلا .

الفصل السابع

﴿ أسباب بغض اعدائه له ﴾

ان البشر في كل زمان ومكان يبغضون من ينبههم إلى مساوئهم ويميلون إلى من يتملقهم ويوافقهم على مآربهم الدنيوية ويسهل لهم سبيل التمتع بالشهوات العالمية . لهذا لا غرو ان كنا نرى لفم الذهب أعداء كثيرين لانه لم يكن يرى عيباً الا ويأمر بتركه ولم يكن يقع بصره على مخالف الا ويرشده إلى طريق الصواب شأن الراعي الصالح والخادم الامين . ومع كونه كان يشعر بما يزعجه من الاخطار التي أصبح عُرضةً لها بسبب أمانته فانه ما كان يفتأ لحظة عن القيام بواجبه اتباعاً لقول سلفه بولس «فلو كنت بعد أرضي الناس لم اكن عبداً للمسيح » .

اجل . لكثرة شهامته وحريته وتوبيخه بصراحة للاغنياء والكبراء كثر حساده ومبغضوه لانه كما قلنا لم يكن يخشى في تأييد الحق لومة لائم ولم يكن يخشى ان يظهر لهم ما هم عليه من أنواع الرذائل وحبهم للشهوات وتركهم الفضائل الروحية ولكن رغماً عن انقباض قلوبهم وتصديع ضمائرهم من فعال وتأثير عظاته وتألمهم من شدة مقالاته كانوا يتزاحمون عليه اكثر فاكثر .

قلنا آنفاً انه لما رجع إلى القسطنطينية وجد شدائد كثيرة تنتظره وذلك لاسباب كثيرة سنفصلها . وقد تقدم معنا ايضاً ان سافر بنوس اسقف جبالة ناب عنه مدة غيابه في أفسس فهذا الرجل المتغطرس كان من ألد أعدائه ولهذا اجتهد كثيراً في اثناء سفره ان يظهر فصاحته و بلاغته حتى ينجذب القوم اليه.

والرعاة الكثيرون الذين كانوا يحسدون فم الذهب على شهرته في الوعظ أرادوا ان يبرهنوا الملأ انه ليس هو الخطيب الوحيد بل يوجد كثيرون أيضاً يضارعونه فصاحة وعلماً حتى انهم حملوا الامبراطور والامبراطورة على ان يعمدوا ولدهما بيد سافريانوس قبل مجيء فم الذهب من أفسس .

وكان ضده ايضاً طائفة كبيرة من الاكليروس الذين كانوا تحت سلطته الدينية وهؤلاء تأصلت في قلوبهم كراهته . وسبب ذلك انه لما عين بطريركاً للقسطنطينية كان يفرغ الوسع ليخدم بنشاط ويعمل باجتهاد جاعلاً نصب عينيه القيام بمهمته خير قيام كما عهد اليه كخادم أمين فوجه التفاته نحو خدام الدين وهم الاولى بالاصلاح فوجد نظامهم القديم يعتوره الخلل وعدم الترتيب فحثهم على القيام بواجباتهم وأكثر لهم أوقات الخدمة والتعليم حتى تذمروا منه لا سيما الاكليروس الدنيويون الذين كانوا يذيعون القول بأن البطريرك حملهم احمالاً ثقيلة لا يطيقونها .

وكان الكثيرون من الرهبان الذين جمعوا أموالاً طائلة محبين للظهور ميالين إلى اللهو والعجب فقام حيالهم وردعهم عن سوء فعلهم واختار منهم نفراً وأرسلهم بصفة بعثات تبشيرية للامم الوثنية حتى قال في ذلك « لا يسوغ للمسيحيين ان يقفوا في الاسواق بطالين لان كل من لا يستعمل وزنته حق الاستعمال يدعوه المعلم عبداً بطالاً ويطرح في الظلمة الخارجية » اه

وكان يوجد حينئذ في العاصمة امرأة اسمها اوليمبياس من عائلة وثنية غنية شهيرة وكانت مسيحية ورعة على جانب عظيم من السخاء والكرم الا انها لم تلازم دائماً الحكمة في التصرف بغناها فقال لها فم الذهب «يسرني جداً ميلك إلى الحسنات غير اني انصحك ان تضيفي إلى هذه الصفة الحميدة حكمة في التوزيع — قد تركت التمتع بخيراتك الدنيوية حباً بالله وصممت على تخصيصها باسعاف الفقراء ولكن اذكري انك ستقدمين حساباً لله عن استعمالك إياها فلا يسوغ لك ان توزعيها بدون حزم أو باهمال كما تريدين» اه فانصاعت اوليمبياس لهذه النصيحة الحكيمة .

غير ان الذين تعوّدوا أن يفسدوا من اوليمبياس من القوم الذين لهم صورة التقوى فقط وهم ينكرون قوتها لما قصدوها ورفضت طلبهم احتدموا غيظاً وأخذوا يبحثون عن سبب هذا التغيير ولما علموا جلية الخبر كاشفوا اسقفهم العدوان وطفقوا يذيعون الشر عنه ولهذا اصبح رجل الله عرضة لاخطار أخرى اعظم كانت مزمعة ان تكتنفه .

وقد وجد حينئذاك ثلاث نساء كن يستعملن اسباب التبهرج والتبرج وكن يلبسن ملابس غير محتشمة فلم يسكت عبد الله وهو يرى هذه المعائب بل وبخهن بصرامة ووجه اليهن هذا القول « لماذا تجهدن النفس في قهر اجسادكن على اكتساب نضارة الشباب الدائم وانتن تعلمن ان هذا ضرب من المحال . اني احذركن ليس على سبيل النصح فقط بل على سبيل الامر أيضاً انكن اذا لم ترجعن عن طرقكن اخرجكن من شركة الكنيسة لا محالة . واذا قلتن انكن بعد القطع تلتجئن إلى الهراطقة فلا اكترث لذلك البتة» اه . وكان لهؤلاء النساء نفوذ في البلاط الامبراطوري ومنهن امرأة كانت اكثر منهن زهواً وطيشاً تدعى يوغرافيا وكانت احدى رفيقات الامبراطور فهذه ندد بها

مرفأ أمين المؤمنين وحاجز حصين للكنيسة ودرع ضد جهنم فأنا الآن سفير اليكم بناء على هذه العطية المباركة هذه العطية المقدسة وعليه أطلب اليكم أن لا تجعلوني ارجع بالخيبة والحزن كسفير محتقر . قد حدثت أمور سيئة في هذه الكنيسة ومع اني لست أحب الشغب والفتنة أريد أن ننسى جميعاً كل هذه الأمور فسكنوا الآن غضبكم وهياجكم. قد احتملت الكنيسة كثيراً فلتبطل المنازعة لان الله يأمر بذلك . كل ما قلته آنفاً قلته لكي اعدكم لاستماع طلبتي التي اطلبها الآن وهي : اقبلوا اخاكم سافرينوس » اه هذه هي روح المسيحية الحقة «احبوا اعداءكم.باركوا لاعنيكم.احسنوا الى مبغضيكم.صلوا لأجل الذين يسيئون اليكم » وبهذه الكلمات تمكن من تهدئة الخواطر حتى وقف الجموع واشهروا أيديهم دليل قبولهم الصلح فقال لهم « اني اشكركم على قبول كلامي قد قدمتم ذبيحة حقيقية للرب هي ذبيحة المغفرة والسلام فلما سمعتم الاسم لم يغضب أحد منكم فاقبلوه الآن بذراع ممدودة » اه

ومن الاسباب الكثيرة التي تبرت الوبال على فم الذهب ان مقاومته للهراطقة كانت شديدة للغاية وكان الآريوسيون (١) قبل عهده لهم سلطة كبيرة على الكنيسة ولكنه أراد أن يرد هؤلاء إلى حظيرة الايمان المستقيم وينزع من عقولهم الآراء المخالفة للمبادىء الكتابية المقدسة ورأى أن عليه واجباً يقضي عليه بتخليص هؤلاء القوم ويظهر ذلك من قوله « يجب على المسيحي ان يكون نافعاً للآخرين فقد علمنا ذلك السيد المسيح بدعوته إيانا الملح والخميرة والنور وهي أشياء من شأنها نفع الآخرين . النور ينير الجالسين في الظلمة فاذا كان لك النور فذلك ليس فقط لكي تتمتع به لذاتك بل لكي تنير الذين في الظلام وترجع الضالين عن الطريق » وفعلاً فقد نجحت أعماله بين هؤلاء القوم وأتت بالثمر المطلوب وطلب كثيرون الرجوع إلى حضن الكنيسة

وهكذا لبث يضرب بيد من حديد على تلك العقائد الباطلة لا سيما عندما قام زعماء الشيعة الآريوسية واخذوا يحتفلون باشهار معتقدهم الوخيم وينظمون فيه التراتيل المستهجنة المشحونة من قواعد هرطقتهم الفاسدة التي كانت كلها تشير إلى «عدم مساواة الابن للآب وعدم امكانية وحدانية الثالوث الاقدس» ولان أماكن عبادتهم كانت خارج المدينة كانوا يذهبون اليها ويحتفلون بصلواتهم فيها ليلاً ونهاراً ويخرجون منها عند طلوع الفجر جماعات جماعات رجالاً ونساء جائلين في الشوارع مرتلين تراتيلهم التي كانت تسب السيد المسيح

أما البطريرك فلم يسمع بذلك حتى أسرع بنظم تراتيل روحية ضد تراتيلهم الآريوسية مبيناً فيها سر الثالوث الأقدس ومساواة الابن للآب في الازلية وبهذه التراتيل سار الالوف يطوفون الشوارع مرنمين ومرتلين مهللين (بهذه التراتيل) محفوفين بالمجد والبهاء منتصرين على اولئك السفهاء الاغبياء . وحقاً لقد كانت هذه الطريقة من أغرب طرق بث روح التعليم والتبشير بالانجيل

(١) الآريوسيون هم اتباع آريوس الهرطوقي الذي اعتقد ان الابن غير أزلي حسب قوله المشهور « كان زمن لم يوجد فيه الابن » (أي يسوع المسيح) ولا ريب أن هذا الكلام مردود بآيات كثيرة كتابية علاوة على أن مجمع نيقية حكم عليه بالقطع من شركة الكنيسة نظراً لاعتقاده الفاسد وبعد ذلك بقليل [illegible] فجأة ولكن انصاره لم يكفوا [illegible] كتابة [illegible] الرأي [illegible] وكانت [illegible] سلطة الحكومة [illegible] الشعب ومن يشوق الى [illegible] في معتقدات آريوس [illegible] بمطالعة سيرة القديس اثناسيوس تأليف جبرائيل باك روفائيل الطوخي وعبد الفادي [illegible] التي صدرت من مطبعتنا وهي الحلقة التاسعة من سلسلتنا هذه

في ذلك الزمان (١) وما تقابل الفريقان ووقعت منهم العين على العين إلا واستحكم بينهم الخلاف وعلت ضوضاؤهم فهجم الفريق منهم على الآخر وهم يضرب به ولكن حسم بينهم الخلاف أخيراً

ولما رأى ان البرهان لا ينفعهم لأنهم يهربون من ظهور النور وان السلطان الكنسي أصبح عديم الاعتبار لديهم التجأ الى السلطان العالمي فوجد الامبراطور مرة داخلاً إلى الكنيسة فاستقبله في الباب وقال له « ان أراد أحد أيها الامبراطور أن ينزع عن اكليلك هذا حجارته الكريمة ليضع بدلها حجارة دنيئة وزجاجاً فهل كنت ترضى بذلك؟» فأجاب الامبراطور : كلا. وحينئذ قال له «فكيف إذاً تسمح بأن يختلط الهراطقة بالمؤمنين والجواهر الكاذبة بالجواهر الحقيقية؟» فأمر الامبراطور بطرد الهراطقة من المدينة ان لم يعودوا إلى حسن الايمان

ولما صار غاينا أحد الجنود الآريوسيين قائداً للجيش بواسطة انتصاراته تجاسر وطلب من الامبراطور كنيسة من كنائس المدينة ليصلي فيها مع حزبه فسمح له بذلك ولما علم البطريرك بهذا الخبر ذهب حالاً إلى اركاديوس وطلب منه أن يحضر هذا القائد ولما حضر نهض وقال «اعلم يا غاينا أن لا سلطان للامبراطور أن يتصرف بالكنائس ولا تما للكنائس ما لم يخرج عن كونه امبراطوراً مسيحياً. فان هذا الامر يختص بي دون سواي فينبغي أن تلتجىء إليّ في هذا الشأن فان أردت كنيسة تصلي فيها فهوذا كل كنائس المدينة مفتوحة لابناء الكنيسة ولكنك تطلب أن تخص بك و بجماعتك الآريوسيين كنيسة وعندك أن هذا قليل بالنسبة إلى التعب الذي احتملته والدم الذي سفكته في خدمة

(١) نعم وللترتيل شأن كبير في نشر المسيحية في كل آن وفي كل صقع

الامبراطور. أما أنا فأقول لك انك اذا كنت خدمته في أشياء جليلة فقد جازاك عنها خير الجزاء فانت من الرعاع وهو قد رفعك إلى منصب عالٍ. فاعلم ان طلبك يغيظ الله تعالى ولا يجوز للامبراطور أن يفعله وان رضي فانه يجلب عليه غضب الله سبحانه ونقمته » اه

فخاف غاينا وكان لسان حاله يقوله ان لسان البطريرك احد من سيفه ولما غضب القائد من الامبراطور خرج من المدينة وفتك باقليم تراقيا واذ لم يقدر أحد أن يمضي اليه لمخاطبته ذهب اليه البطريرك بنفسه فلما اخبروا غاينا دهش من هذه الشجاعة المقدسة وحار عقله وخرج اليه وجثا أمامه وقبض على يده ووضعها على رأسه وأمر أولاده أن يفعلوا هكذا مثله و بذلك انتصر البطريرك عليه .

كل تلك الاسباب قوت الحزب المعارض لفم الذهب فازداد عدد أعدائه ازدياداً عظيماً . غير أن الذي جر عليه الوبال العظيم واخره كثيراً سخط الامبراطورة افدوكسيا عليه فقد غرس بفؤادها أصل البغضاء له حتى كانت تنظر اليه بعين الحقد والغباء وكل ذلك لكونه كان لا يحابيها أو يجاريها على فخرها بملكها وكان يأنف و يستنكف بل ينفر من صميم فؤاده و بكلياته من التداخل في محافل الامراء وملاذ العظماء وكان يبتعد عنها كل الابتعاد وما كان يهمه إلا أن يكون شاهداً أميناً للحق . وعند ما كان ينتصب للخطابة والوعظ كان اعداؤه يراقبونه لعلهم يصطادونه بكلمة من فمه فمرة بينما كان يعظ نطق في سياق الكلام بكلمة (اودكسيا) التي معناها (عار أو فضيحة) وكرر فيها بصفة تأكيد لفظها فعند ذلك نقل الواشون للامبراطورة افدوكسيا واثبتوا في عقلها واكدوا لها

ان فم الذهب ما قال هذه الـكلمة (عار) بهذه اللفظة الغريبة من اسمها إلا
وهو يقصدها ذاتياً وعلى الخصوص فان موضوعه في هذه المدة كان على سوء
تصرفات النساء بالتبذير والاسراف في أزياء ملابسهن وتفاخرهن باشكالهن
ولمح على انتشار تلك المصائب بين دوائر الحكومة فكان هذا سبباً في تمكن
الوشاية في عقل الملكة فغضبت لذلك غضباً شديداً وصارت تكره يوحنا
كرهاً بليغاً وكان لهذه الكراهة وذاك البغض أسباب أخرى .

منها : حدث ان والي الاسكندرية ، وكان رجلاً شريفاً يقال له بولاسيوس
ظلم كاليتروبيا إمرأة أرملة واختلس منها خمسمئة دينار ، فلما انعزل عن منصبه
أتت المرأة إلى القسطنطينية لتشكوه إلى المحكمة غير أن الحكام لم يسمعوا لها
فالتجأت إلى الامبراطورة فالزمت بولاسيوس برد الدراهم فرد المبلغ حالاً ودفعه
للامبراطورة أما هي فأعطت منه للأرملة ستة وثلاثين ديناراً فقط واختلست
الباقي فاستغاثت الارملة المسكينة بالبطريرك فلما حضر بولاسيوس إلى
الكنيسة قبض عليه البطريرك وطالبه بالمبلغ فأرسلت الامبراطورة وطلبت ان
يطلقه فلم يرض بذلك قبل أن يدفع المبلغ للأرملة فاحتدمت الامبراطورة
افدوكسيا غيظاً ودفعت المبلغ مكرهة

ومنها : ان أفدوكسيا اختلست حقلاً بالظلم من أرملة بحجة باطلة فاستغاثت
الارملة بفم الذهب ليخلص لها حقها من الامبراطورة فكتب اليها ولم ترد عليه ثم
أرسل لها رسلاً من قبله فازدادت قساوة . فلما جاء يوم عيد الصليب وعرف
أن الامبراطورة آتية إلى الكنيسة وقف لها على الباب ومنعها عن الدخول
لهذه الاسباب وما شاكلها امتلأت الامبراطورة بغضة وكراهة ليوحنا

وكذلك أبغضه كثير من الاغنياء والكبراء وبعض الاكليروس الذين
يهملون في واجباتهم وكان يشدد عليهم النكير في وجوب تأدية الواجبات .
كل هؤلاء رأوا أن بغض الامبراطورة له خير وسيلة تستعمل لطرده من كرسيه.
غير انهم كانوا يعلمون محبة الجميع له وشديد تعلقهم به فكانوا لا يستطيعون
الاقدام على مثل هذا العمل العظيم. فقدر لهم الحظ عاصفاً قوياً كان ثائراً في
وادي النيل وكان مزمعاً أن يصل إلى القسطنطينية ويجعل فيها الخراب
والدمار وتفصيل ذلك في الفصل الآتي : —

الفصل الثامن

(ثاوفيلس والاخوة الطوال القامة)

في ذلك الوقت الذي كان فيه أعداء فم الذهب يدبرون له المكائد انفيه كان الخلاف بالغاً أشده في البلاد المصرية بين ثاوفيلس بطريركها و بعض الرهبان وسبب ذلك أن هؤلاء وعلى الاخص « الاخوة الطوال » كانوا من أتباع العلامة أوريجانوس (١) الذين يوافقون على مبادئه ويدافعون عنه أمام حارميه فما كان من ثاوفيلس إلا أنه حرم أوريجانوس وحرم هؤلاء الرهبان معاً فلم يرضخوا لهذا الحكم ولذلك استعمل ثاوفيلس معهم الشدة وأهانهم كثيراً حتى لم يستطيعوا البقاء بمصر فتركوها وولوا الأدبار هاربين من وجه البطريرك قاصدين فلسطين حيث قضوا بعض أيامهم يسكنون آمنين في سفح جبل جلبوع وهم يمارسون عمل الاقفاص من جريد النخل وهي صناعة تعلموها في مصر وتبعهم كثيرون من الفارين حتى زاد عددهم زيادة تستدعي الالتفات وكان جماعة المسيحيين في فلسطين يرمقونهم بعين الاحتقار والفتور

(١) كان اوريجانوس من أعظم ابناء الكنيسة المصرية في النصف الاول من القرن الثالث ، ولا عد ولا حصاء لكثرة مؤلفاته واكثرها تفسيرية ، انما مزج الفلسفة بالتفسير والشرح . زعج قواد الكنيسة ورؤساءها لان اكثرهم لم يفهموا تماماً ماذا كانت أفكار اوريجانوس في أي موضوع من المواضيع التي عالجها وكتب فيها. وفي زمن فم الذهب كان « الاخوة الاربعة الطوال القامة» من اتباع اوريجانوس وكان ثاوفيلس بطريرك الاسكندرية من المقاومين لفلسفة اوريجانوس فحرم هؤلاء الاخوة مع اخوان كثيرين لهم وعذبهم كثيراً فهربوا الى فلسطين (بر الشام) ومنها الى القسطنطينية

لعلمهم أن بطريركهم حرمهم ونفاهم ولكن بعض الأساقفة أظهر نحوهم حناناً واشفاقاً فمنهم ثاوفيلس ووبخهم ورجاهم بان لا يعودوا يمتزجون بهؤلاء الرهبان لئلا يعد عملهم هذا مسبة ويحسب ذنباً واهانة

ولما ضاق الحال على هؤلاء الرهبان المنفيين وكان عددهم قد بلغ الخمسين رفعوا دعواهم إلى بطلنا فم الذهب . وفي سنة ٤٠١ مثل أمامه أولئك الرجال الكبار السن الذين أضناهم طول السفر وأضر عظمهم البلاء المر. فلما وقع بصره عليهم وعلى ما هم عليه فاضت عيناه بالدموع الغزيرة رثاء لحالهم وتوجعاً لمصابهم وسألهم ماذا أفعل لكم وأية طريقة تخفف ويلاتكم ؟ فطلبوا منه أن ينصفهم من بطريركهم الذي جار عليهم واعتدى وهضم حقوقهم دون أن يخشى ربه أو يخاف لوم اللائمين . ثم وقف كليم فصيح من بينهم وخاطب فم الذهب بصوت جهوري قائلاً « إذا كنت تراعي خاطره ولا تعمل على تنفيث كربنا فنضطر حينئذ إلى رفع دعوانا إلى الامبراطور نفسه وكل الذي نطلبه منك أن تسترضي ثاوفيلس حتى يسمح لنا باستيطان وطننا ومسقط رأسنا فاننا لم نجن ذنباً ضده ولم نرتكب أمراً يستمطر غضب الله علينا » اه

فوعدهم فم الذهب خيراً وأخبرهم أنه سيبذل جهده في مساعدتهم على شرط أن لا يقدموا مسألتهم أمام السلطة المدنية ولا أن يحدثوا هياجاً واضطراباً في المدينة ثم ختم كلامه لهم بقوله « حيث أنني كتبت لأخي ثاوفيلس في هذا الصدد فعليكم بالصبر حتى يجيء رد الجواب» وقد أظهر لهم كل لطف وايناس واسكنهم في مخادع كنيسة القيامة وكان في ذلك الوقت يبحث في هذا الأمر مع جماعة من اكليروس الاسكندرية كانوا قد أرسلوا إلى ديوان الامبراطور

لاشغال تختص بوظيفتهم وصار يستشيرهم في الأمر . فقالوا له « ان رهبان دير وادي النطرون تحملوا الهوان في المعاملة التي عوملوا بها» ولكن هؤلاء القسوس ارتأوا أن رفع هذه الدعوى إلى بطريرك القسطنطينية لا ينتج نتيجة حسنة ولا يأتي بفائدة ثم طلبوا منه أن لا يتسرع في قبول هؤلاء الرهبان على مائدة العشاء الرباني لئلا يكدر ثاوفيلس بعمله هذا ولكنه إذا رغب في اظهار الشفقة والحنو عليهم فيلظهرها بطرق أخرى غير طريقة المناولة

فقبل فم الذهب نصيحتهم وكتب إلى ثاوفيلس يرجوه إيجاد وسائل السلام والسكينة ولكن ثاوفيلس لما بلغه ان هؤلاء الاخوة ساروا إلى القسطنطينية أرسل إلى فم الذهب مكاتيب اللوم والتعنيف نظير التي كتبها إلى أساقفة فلسطين قبلاً حين طلب عدم الاختلاط مع هؤلاء الرهبان ولكنه لم يكتف بذلك هذه المرة بل اتهمهم بتهمة جديدة هي انهم ليسوا فقط أهل بدعة وشقاق بل هم سحرة يخاطبون الجن والعفاريت فاهاجت هذه التهمة الشنيعة سخط عامة اهل القسطنطينية ضد هؤلاء الاخوة المساكين حتى كانوا يزجرونهم و يهزأون بهم على قارعة الطريق فحزن اكثر الرهبان لاتهامهم بهذه التهمة التي يعرفونها سيئة النتائج فلذلك انفذوا الوسطاء والشفعاء إلى ثاوفيلس ليرجوه صفحاً ومغفرة ولكن الاربعة الاخوة الطوال واصدقاءهم الأخصاء نظروا إلى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتقار ولم يعبأوا بها قط بل اعدوا تهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها إلى بطريرك القسطنطينية

فكتب فم الذهب إلى ثاوفيلس مرة اخرى واظهر أسفه الشديد من أن خصومه جروا معه على الطريقة التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القسطنطينية فلم يفلح وختمها بقوله «انى فحصتهم باعتناء فلم أجد في اقرارهم ما يخالف الحق على ان الحزن قد استوعب قلوبهم ويخشى ان يقدموا عليك الشكاية لدي الامبراطور فارجوا اذاً ان تصفح عنهم لينتهي الامر والا طرحت هذه الدعوى المحزنة امام المجمع » اه فغضب لذلك ثاوفيلس غضباً شديداً واجابه جواباً مملوءا من الحقد والغيظ فقال «اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذي وضعه المجمع النيقوي القاضي بعدم تدخل اسقف أو بطريرك في المسائل التي لا تنحصر ضمن دائرة سلطته فارجو ان تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكف عن الصدام والجدل معي اما اذا قضى الزمان عليّ بالمحاكمة فسوف يحاكمني اساقفة مصريون لا انت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا يقتضي لوصولنا اليهم او وصولهم الينا سفر ٧٥ يوماً كاملاً » اه

فقرأ فم الذهب هذا الجواب الشديد اللهجة بالرضى والاذعان واخذ يسعى جهده في حث الاخوة الطوال القامة واصدقائهم على فض هذا المشكل بالحسنى وابطال الدعاوي التي تولد الحقد والغل ولكن هؤلاء لم يرضخوا بل أستأنفوا قضيتهم الى الامبراطورة افدوكسيا اذ بينما كانت راكبة في مركبتها الملكية مرة وذاهبة الى كنيسة مار يوحنا حسب عادتها تقدم المنفيون المصريون (وهم لابسون جلود الوحوش) وطرحوا انفسهم امامها . فلما رأتهم الامبراطورة اوعزت اليهم ان يقتربوا منها حتى اذا مثلوا بين يديها استدلت من طول قامتهم وزيهم الغريب على كونهم غرباء . ثم قدموا اليها عريضتهم والتمسوا منها طرح دعواهم لدي مجمع في القسطنطينية فوعدتهم الامبراطورة خيراً بالنظر

في دعواهم والمدافعة عنهم واستدعاء البطريرك الاسكندري الى القسطنطينية ثم ختمت كلامها بالطلب اليهم ان يقدموا الصلوات من اجلها ومن اجل رجلها ومن اجل اولادها .

وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار أمره باستدعاء ثاوفيلس الى القسطنطينية حتى تقام دعوى هؤلاء الاخوة في مجمع محلي يترأس عليه فم الذهب . ومعلوم ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثاوفيلس لا سيما لانه كان يبغض فم الذهب ولم تدعه كبرياؤه او تقدمه وشهرته يحتمل هذا وساءه رؤية انسان يفوقه في السلطة الكنيسية . ومن ثم كان يسعى جهد استطاعته في ايذائه . ولما وصلت اليه الرسالة القاضية بضرورة ذهابه الى القسطنطينية استشاط غضباً وأخذت مراجل الحقد تغلي في قلبه . غير انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعوى ضده غيابياً وافتتحت بفحص الشكاوي الموجهة نحو الرهبان المتهمين بالاوريجانية فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم المجمع بسجن الخمسة الرهبان الذين أنفذهم ثاوفيلس ليشتكوا ضد الرهبان الذين طردهم ثاوفيلس و بينهم الاخوة الطوال القامة .

فلما بلغت هذه الاخبار ثاوفيلس اغتاظ من فم الذهب واصبح الرهبان المنفيون أمراً ثانوياً ووجه كل همه نحو ايذائه بأية طريقة ولذلك عزم على اتهامه بالاوريجانية لموالاته الاخوة الطوال القامة وجعل يفتش عن اسقف من ذوي القدرة حتى يعتمد عليه في هذا الامر حتى وقع اختياره على ابيفانيوس اسقف سلاميس . ومع ان ثاوفيلس كان في مبدإ أمره من اشد انصار العلامة أوريجانوس حتى كثيرا ما توعد اسقف سلاميس هذا اذا لم ينصع لمبادئه

ولكن عند ما اراد ان يحول الحق عن مكانه وأصبح من أعداء اوريجانوس بعد حادثة الرهبان خالف ضميره وأرسل لابيفانيوس يستعطفه ويملقه و يقول له « ان تعليمك الشافي أرجعني عن رأيي الاول من حيث الميل إلى أقوال اوريجانوس وهو الذي أخرجني من الظلام الى النور فأنت أيها المعلم العظيم الحامي عن الايمان القديم قد أرجعتني عما كنت فيه من الضلال وهديتني الصراط المستقيم » اه

فسر ابيفانيوس من هذا التمليق وعقد مجمعاً محلياً من أساقفة قبرص وأغراهم بالحكم على اوريجانوس وتعاليمه ليكون له وجه المداخلة في المجمع الذي كان مزمعاً أن يعقده ثاوفيلس بالقسطنطينية للنظر في هذه القضية ولم يلبث ثاوفيلس حتى حرض ابيفانيوس على فم الذهب ولم يزل يتلطف به و يحتال عليه حتى استماله ثم عقد مجمعاً آخر في الاسكندرية صادق فيه على قرار مجمع قبرص وارسلوا قرار المجمعين الى فم الذهب . ولما أنعم فيهما النظر وعرف من خلالهما المكيدة التي تدبر له قال « هذان الرجلان يريدان خلعي غير اني سأثبت في مركزي لان الله هو الذي أقامني فيه وسأجري واجباتي الى النهاية فليغفر لي الله ذنوبي وليخلص نفسي » اه

ثم سافر ابيفانيوس قاصداً القسطنطينية لكي يتوعد بطريركها بالقطع اذا أبى الامتثال له ولكن هذا اظهر له مزيد الاحترام والاكرام ودعاه الى قصره غير ان ابيفانيوس اعرض عنه وقال له « لا أقبل دعوتك ما لم تحرم اوريجانوس وانصاره» فاستنكف فم الذهب من هذا العمل ولذلك قال له ابيفانيوس « لا بد لي ان اتركك » وعليه حمل اعداء فم الذهب ابيفانيوس

على الصلاة في كنيسة مار يوحنا المعمدان وارغموه على القاء عظة يبين فيها غرضه من مجيئه الى القسطنطينية . ولما سمع بذلك البطريرك ارسل اليه شمامسه ينذره بالخروج من الكنيسة التي هي في دائرة رئاسته واذ شعر ابيفانيوس بتعديه على الناموس رجع إلى بيته في الحال .

اتفق ان ابن الامبراطورة قد مرض فاستدعت ابيفانيوس الذي كانت تعتبره كثيراً ليصلي لاجله فقال لها «سيحيا ولدك اذا اقلعت عن الدفاع عن الهراطقة » فارسلت الامبراطورة واستدعت أحد الاخوة الطوال وأمرته بأن يذهب هو واخوته الى ابيفانيوس ليتصالحوا معه فذهبوا اليه وسألوه هل قرأ شيئاً من المؤلفات التي ذمها فاعترف انه لم يقرأ ولم ير كتاباً واحداً من تلك الكتب فقالوا اذاً كيف تحكم على ما لم تره عينك ؟ وأخيراً ثبت له صحة دعواهم فعول على ترك الدار تنعي من بناها ولا سيما وهو على أبواب الموت فركب مركباً من القسطنطينية الى قبرص قبل مجيء ثاوفيلس ولكن في أثناء سفره اعترته حمى شديدة ذهبت بحياته قبل وصوله الى مركزه .

أما ثاوفيلس فلم يفتأ يحرض القوم في القسطنطينية على فم الذهب وظل يبعث الوفود تلو الوفود لايغار صدور القوم عليه حتى تكون حزب شديد اصبح يناوئه العداء وعلى رأسهم الامبراطورة افدوكسيا .

وفي سنة ٤٠٣ سافر ثاوفيلس قاصداً القسطنطينية واشاع قبل سفره انه ذاهب اليها ليخلع يوحنا بطريركا من وظيفته قصاصاً له على أعماله التي أتاها ضده . فسار ثاوفيلس الى عاصمة المملكة في ابهة السلطان تحف به حاشية من اساقفة مصر والحبشة وتحيط به زمرة من الكهنة والقسوس كما لو كان من الملوك والسلاطين فالقت سفينته مرساها في مياه البسفور التي كانت تنعكس أشعة شمس شهر يونيو على مياهه . فحياه بحارة المراكب المصرية التي كانت راسية هنالك حاملة ضريبة الحنطة وأدوا له واجبات التعظيم والتبجيل وهم يفرحونه ويطربونه ولكن قسوس القسطنطينية لم يفدوا لاستقباله اوالاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة بالقسطنطينية بل قصد خلكيدون حيث لاقاه أسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم وأحسن وفادته

أما أعداء فم الذهب فاظهروا لثاوفيلس كل ضروب الاحترام وجعل ثاوفيلس بما أحضره من الأموال يستميل الأساقفة اليه حتى تقوى حزبه ولذلك سافر إلى العاصمة حيث احتفل به المصريون احتفالاً عظيماً وبينما كان مجتازاً بقصر فم الذهب خرج اليه هذا واستدعاه لكي يقيم عنده فرفض طلبه لانه أبى أن يتصالح مع من أتى لايذائه .

وحدث حينئذ أن الاخوة الطوال امتحنوا فوجدوا أبرياء ولما رأى الامبراطور ذلك غضب على ثاوفيلس وأرسل لفم الذهب يطلب منه أن يذهب لمحاكمة ثاوفيلس ولكن عدالة ذاك اقتضت أن يرفض طلب الامبراطور لانه لا يجوز محاكمة اسقف خارجاً عن دائرته في أبروشية اسقف آخر وهكذا تخلص ثاوفيلس من هذه الجائحة بواسطة نزاهة وعدل من أتى لايذائه

وشاع على ألسنة القوم خبر مخيف وهو أن ثاوفيلس أتى لاهلاك فم الذهب ولما سمع هذا الخبر الجمهور وكل الشعب الذين كانوا يحبون أسقفهم كل المحبة تقاطروا إلى الكنائس ليصلوا لأجله وأحاط بقصره عدد عظيم من

الصناع لكي يحافظوا عليه أما هو فقال لهم « إن الرب ترسي وهو قوة الذين ينتظرونه » ثم طلب منهم أن يصلوا لأجله . ولما لاحظ أعداؤه هذه الحركات من القوم خافوا أن يعقدوا المجمع في القسطنطينية لئلا يقوم لمناوأته الشعب الذي لا يطيق أن يرى أقل أذية تمتد إلى أسقفهم الوقور ولذلك صمموا على وجوب نقله بالقرب من خلكيدون في مكان جميل يدعى بالسنديانة (أو البلوطه) وهناك عقدوا المجمع وترأس عليه ثاوفيلس

ومن الحوادث التي أدهشت بل حيرت أفكار المطلعين على مجرى الأمور وحقائقها هو انقلاب الحال وانعكاس المآل بل صار المدعي متهماً والمتهم رئيساً وذلك أن ثاوفيلس الذي كان قد طلب المجاوبة أمام المجمع الذي يرأسه فم الذهب عما ادعوه عليه في حق أولئك الرهبان صار الآن رئيساً وطلب فم الذهب لمحاكمته

وبينما كان خصومه في المجمع يدبرون المكائد ضده كان هو وأساقفته جالسين في قصره وسمات الكآبة والحزن على وجوههم ولكنه كان صابراً رابط الجأش بل كان يعزي من حوله بقوله « صلوا إلى الله أيها الاخوة وإن كنتم تحبون الرب فلايترك أحدكم كنيسته بسببي فاني الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر . إني ساهجر العالم بعد احتمالي آلاماً مبرحة واعلم جيداً ما يمده ابليس ضدي لأنه لا يستطيع أن يسمع مواعظي التي تحاربه فاذكروني إذاً في صلواتكم » اه . فلم يطق أحباؤه هذا الكلام بل أخذوا في البكاء والحزن فاستدرك تعزيته لهم وقال « كفوا أيها الاخوة لا تبكوا ولا تكسروا

قلبي لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح . اذكروا ما قلته لكم دائماً أن هذه الحياة الحاضرة ليست إلا سفراً يتعاقب فيه الفرح والحزن بكل سرعة . فكأننا في سوق نشتري ونبيع ونأتي ونذهب . هل نحن أفضل من الآباء والأنبياء والرسل حتى نسعى في أن نكون خالدين في هذه الحياة الدنيا؟» فأجابه أحد الأساقفة « إن مايجعلنا نذرف الدموع هو أننا سنكون أيتاماً بعد ذهابك وأن الكنيسة ستكون خربة وأن الحق لا ينادى به» فقاطعه فم الذهب بقوله كف أيها الأخ — لا تتكلم بعد — يكفي . أكرر قولي لا تتركوا كنائسكم . لست أنا الواعظ الأول بالانجيل ولا أكون الآخر . لما مات موسى قام بعده يشوع ولما ترك أرميا العالم أخذ مكانه باروخ ولما رفع ايليا إلى السماء شرع اليشع يتنبأ . إن بولس احتمل موت الشهادة غير أنه ترك لنا تيموثاوس وتيطس وأبلوس وكثيرين غيرهم » اه

وهناك في المجمع ظهر أعداء فم الذهب الذين كانوا يعملون على إيذائه تحت ستار الخفاء فظهر انتيوخس وأكاسيوس أسقف بيرية وسافريانوس الذي ناب عنه مدة سفره إلى أفسس وغيرهم ممن سبق ذكرهم وهناك جعلت يوغورافيا وأمثالها يساعدونهم بسلطان الحكم المدني وبدأوا يختلقون ضده التهم الكاذبة والدعاوي الفارغة التي لا طائل تحتها والتي اخترعها فكرهم الساقط وقد بلغت ٣٦ تهمة. ومن تلك التهم قولهم (١) إن قساوة وظلم يوحنا للكهنة الذين كانوا تحت رئاسته وسوء معاملته لهم أصبحت معلومة ومقررة لدى الجميع (٢) انه اختلس أموال الكنيسة وباع أمتعتها جميعها (٣) وكان يقابل النساء مقابلات

خصوصية (٤) وكان يتناول غداءه وحده (٥) وله حمام مخصوص (٦) وكان يخلع و يلبس ثيابه وهو جالس على كرسي البطريركية (٧) وأنه أكل مرة قرص سكر كقرص النعناع وما أشبهه على مائدة الرب (٨) ومرة أفطر قبل تتميمه سر العماد (٩) والذنب الأكبر هو كونه دعى الامبراطورة باسم إيزابل امرأة أخاب الملك ذات السيرة الردية الواردة بسفر الملوك الثاني

وعلاوة على هذه التهم أضافوا عليها ما اقتبسوه من أقواله وتمسكوا به عليه . من ذلك ما أخذوه من قوله في خطبته التي ذكرت آنفاً في احتفال الامبراطورة بكنيسة الشهداء » إنني في غاية السرور والبهجة والحبور بل في حالة جنون وجنون كهذا خير من حكمة الحكماء وفهم الفهماء » فانهم ادعوا عليه بالجنون و بتروا أقواله ولم يقتبسوها بتمامها توصلاً لادراك مآربهم الفاسدة وغاياتهم الباطلة. وقد طلبوه للحضور أمام مجمعهم أربع مرات ليجاوب عن هذه التهم التي لا تحتاج إلى تفنيدها فهي واهية من ذاتها ولكنه بكل ثبات قاوم وعارض في إقامة هذا المجمع وطلب عقد مجمع قانوني في القسطنطينية مؤلف

يلاحظ القارىء في هذا الفصل انني لم اعدل عن الامانة في الكلام عن تاوفيلس بل ذكرت ما وجب ذكره بكل امانة . لان المؤرخ الصادق يجب عليه ان يذكر الحقائق التاريخيه على علاتها ولو كانت من جهة نفسه ولو امعنا النظر في الكتب الالهية لوجدنا افضل الانبياء واعظم الرسل اشهروا آثامهم على الملأ دون ان تأخذهم في ذلك خفية او يمنعهم عن ذكر عيوبهم سمو مقامهم وعلو مكانتهم . فذكر موسى خطايا نوح ولوط وابرهيم واسحاق ويعقوب بل ذكر عن نفسه مخالفته لامر الرب وذكر غيره خطايا داود وسليمان وذكر بطرس خطيته الخ وقد قيل ان تاوفيلس ندم على ما فرط منه والله اعلم
(منسى)

من أربعين أسقفاً وأرسل محتجاً بذلك إلى ثاوفيلس ولكنهم لم يعتبروا احتجاجه ولم يراعوا أقواله بل ضربوا رسله وأهانوهم . ثم اتحدت أصواتهم وآراؤهم على عزل يوحنا من أبروشيته لسبب عناده وتكبره وتراكوا مسألة تهمته باهانة الامبراطورة لحكم المحكمة المدنية فاحالوه عليها وأعلنوا حكمهم للشعب . و بناء على ذلك أصدر كاديوس حكماً مدنياً يقضي بنفي فم الذهب نفياً مؤبداً

نعم، واذا ارتاب احد في نسبة هذه الخطايا الى تاوفيلس فليقرأ تعليق جبون **Gibbon** كاتب تاريخ الامبراطورية الرومانية الذي استعمل لهجة اشد بكثير من لهجتنا وكذلك بقية اهل التاريخ
(عبد القادي)

الفصل التاسع

النفي الاول – الزلزلة – عودة البطريرك

كان يوحنا محجوزاً في قصره وفي الكنيسة الكبرى وكان يجتاز من المكان الواحد إلى الآخر وهو يعزي خدامه الرعاة وأعضاء كنيسته المحزونين. وحدث ذات يوم أن سافر ينوس اجترأ على الصعود إلي المنبر وأخبر الجمهور بالحكم على فم الذهب فثار عليه الجمهور وبالجهد أمكنه التخلص من انتقامهم. وما بلغ هذا الخبر أسماع الأهالي السذج إلا وهاجو وماجوا والغضب ملء صدورهم وازدحموا بالدار البطريركية وبالكنيسة الكبرى قائمين ليلاً ونهاراً في المحافظة على راعيهم لئلا يخطف منهم سراً . أما هو فعند ذلك كان يرتقي منبر الخطابة مدة ثلاثة أيام متوالية في أوقات معينة ويخطب في الجمع المزدحم بالكنيسة الكبرى بما يناسب المقام فكان يحض على وجوب اتباع الصبر عند الملمات والخضوع لارادته الالهية . ومما عزى به القوم وقتئذ هذا القول الذي يدل على ثبات إيمانه وحبه لمخلصه « لقد دهمتنا الأمواج وأصابنا نوء عظيم غير أننا لانخاف من الغور في اللجج لأننا ممسكون بالصخر فليهدر البحر ما شاء لا يمكنه شق ذلك الصخر ولترتفع الأمواج إلى السماء فانها لا تكسر السفينة . ماذا يا ترى يرعبني ؟ أهو الموت ؟ المسيح حياتي والموت ربح . أهو النفي ؟ الأرض للرب وملؤها . أهو فقدان ما أقتنيه على الأرض ؟ إننا لم نأت إلى العالم بشيء وواضح أننا لانقدر أن نخرج منه بشيء . إني أحتقر اضطهاد العالم وأضحك على غناه . لست أخاف الفقر ، لست أخاف الموت ما لم تكن حياتي نافعة لكم ، فلا تخافوا إذاً ، ليس أحد يستطيع ان يفصلنا عن بعضنا ، لا نضطرب مما قد يمكن ان يحدث بل ليكن لنا ايمان راسخ . ألستم تعلمون ان بطرس مشى على الماء وانه انما ابتدأ يغرق عند ما ضعف ايمانه . لم تكن قوة الامواج هي التي تهدده بالهلاك بل ضعف ايمانه . . . . .

منذ كم سنة حدث زلزال ارتعدت منه فرائصنا فرقا ومع ذلك ظلت المدينة قائمة . لما عجز الشيطان عن هدم بيوتنا عزم الآن على هز الكنيسة . ولكن لنثبت غير خائفين . الكنيسة هي جماعة المؤمنين الذين يحيطون بنا . فانظر يارئيس هذا العالم ما اكثر الاعمدة الثابتة التي تسندها لا بالحديد ولا بالحجارة بل بالايمان . انك لا تستطيع أن تقهر مؤمناً واحداً. ألم يقل المخلص « حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك اكون في وسطهم » ههنا جماعة عظيمة متحدة بالمحبة فلا ريب ان الرب معنا . هو عكازي وحارسي وملجاي فاذا قام العالم كله عليّ يبقى قلبي ثابتا في مخلصي. هو يقول « أنا معك » المسيح معي فمن أخاف؟ إذا كان الله يريد أن أذهب فسأذهب وأمجده. واذا كانت مشيئته ان أبقى فسأبقى وأحمده. أينما اختار ان اكون فسأطيع أمره واكون شكوراً. فلا تكونوا في الحيرة بل واظبوا على الصلاة. غداً ارافقكم الى الاجتماع للصلاة واكون معكم وحيث أنا فهناك أنتم أيضا. انما نحن جسد واحد اعضاؤه ليست منفصلة حتى ان الموت نفسه لا يستطيع ان يفصلنا عن بعضنا فاذا مات جسدي تبقى نفسي حية وتتذكر الكنيسة . اني مستعد عند الاقتضاء ان أبذل حياتي من أجلكم وأحسب هذا من واجباتي . فهذه الاضطهادات انما تؤكد لي الخلاص وهذا الموت يؤدي إلى حياة أبدية » .

وهكذا لبث مدة يطيب خاطر الرعية بأقواله الطيبة التي كان لها وقع عظيم في نفوسهم حتى انهم كانوا مستعدين أن يدافعوا عنه حتى الموت. وفي اليوم الثالث أتاه رسول من قبل الملك يخطره بأمر منفاه وان الملك أعد له سفينة لنقله إلى محل المنفى واذا أبى أخذه الجنود عنوة . أما هو فقال سمعاً وطاعة . وإذ رأى بعين الحكمة انه إذا خرج جهاراً تقع مذابح كثيرة اختار طريقا سريا وذهب منه مسلما نفسه للجنود لانه قال «لا أريد ان تسفك بسببي نقطة واحدة من دم رعيتي » أما الجنود فجاءوا به إلى مركب أعدت لذلك وحملوه فيها ليلاً من بوغاز البوسفور الى البحر الاسود وهناك انتظروا أوامر الامبراطور بالنظر إلى منفاه .

ولما سمع الشعب المتألب في المدينة بخبر منفاه ناح وبكى . وفي هذه الاثناء دخل ثاوفيلس بطريرك الاسكندرية في مدينة القسطنطينية دخول الفائز المنتصر فقابله الناس بالعويل والولولة والصياح طالبين منه التوسط في إرجاع راعيهم و إصدار عفو عنه أو على الاقل عقد مجمع عام. وكانوا يجتمعون في الكنائس قائمين بصلوات وطلبات وتضرعات وكانوا يزدحمون في الشوارع وكانت الحكومة تستعمل قوتها في تفريق وتمزيق شملهم حتى سفكت دماء بعض المتجمهرين منهم احيانا لانهم كانوا يحيطون بالسراي الملوكية صائحين حولها وطالبين إلغاء الحكم القاضي بنفي بطريركهم و إقامة مجمع ثان للنظر في مظالم المجمع الاول الذي اجتمع بالقرب من خلكيدون . أما سافرينوس الاسقف فانه اتى بأمور اردأ مما سبق منه وذلك انه القى خطاباً تدد فيه على فم الذهب رئيسه بقوله انه متشامخ متكبر والله ضد المتكبرين . وعند ما سمع الناس منه هذا الكلام تركوه وشأنه وخرجوا في الشوارع باكين نائحين صائحين. فكنت ترى أيها القارىء العزيز ان مدينة القسطنطينية في ضجيج وهياج كالبحر العجاج المتلاطم بالأمواج فسادت عليها الاحزان واستولت عليها الاشجان في كل مكان .

أما فم الذهب فكان متكلاً على الله مسلماً اليه دفة حياته و يتضح ذلك من قوله وهو على ظهر السفينة « ربما أمرت الامبراطورة بطرحي في قاع البحر. ربما أمرت بطرحي في النار. ربما قالت ان أطرح للوحوش الضارية. فلا بد لي ان أتذكر دانيال الذي طرح في جب الاسود. إذا رجمت أتذكر استفانوس . إذا قطع رأسي فذكرى يوحنا المعمدان هي تعزيتي » اه

و بينما كان هذا الرجل الصالح في سكون وهدوء متمتعاً بسلام الله الذي يفوق كل عقل والمدينة في اضطراب وفي غاية الغم والاكتئاب والنفوس متجهة نحو الراعي البار والافئدة ملآنة بالاكدار واذا في تلك الليلة التي أخذوه فيها حدث حادث مروّع وهو انه حدثت زلزلة عظيمة كادت تدمر كل المدينة فانزعجت لحصولها القلوب واعتقد الجميع ان ما حصل لرجل الله من الظلم والاهانة لم يكن الله عنه بغافل فكأن الطبيعة ذاتها قامت تطالب بالعدل والانصاف فاهتزت الارض اضطراباً من قدرتها وتزلزلت المدينة ارهابا من قوتها . واتفق أن السرير الذي كانت افدوكسيا مضطجعة عليه ارتفع إلى فوق وسقط إلى الارض فطار لبها روعا وظهر لها ان ذلك إعلان الغضب الالهي عليها وعلى أصحابها البغاة فبكتها ضميرها وانزعج فؤادها في داخلها فبادرت إلى مخدع زوجها الامبراطور اركاديوس وهو لا يقل عنها انزعاجاً وصرخت

باكية « إن البطريرك رجل بار» ثم ركعت أمامه طالبة منه ان يصدر أمره في الحال بابطال نفيه واعادته حالا إلى مقر وظيفته . وما انفجر صباح تلك الليلة المريعة إلا وأصدر الامبراطور أمره والخوف والرعب ملء فؤاده باسترجاع يوحنا من طريق منفاه وأرسلت الامبراطورة تلح عليه في الحضور برسالة تقول فيها « ايها الراعي الجليل اعتقد بأني لم أشعر بما صار ضدك فاني بريئة من دمك والذين تعصبوا عليك هم أناس أردياء أشرار والرب شاهد على الدموع التي أذرفها ذبيحة لعزته وأنا ذاكرة ان أولادي اعتمدوا بيدك » اه

وكانت السفن قد ذهبت انفاذاً لأمر الامبراطور لاسترجاع ذلك الاب المختار إلى أبنائه الذين ما انفطرت قلوبهم بخبر نفيه واستبعاده إلا وعلائم البشر انتشرت برجوعه فعمهم السرور وفي الحال خرجت قوارب كثيرة لاعدد لها من أرصفة ميناء القسطنطينية حاملة مشاعل الانوار لمقابلة سفينة فم الذهب فكنت ترى بوغاز البوسفور كأنه اتشح جلباباً من النور والالوف من الناس في ابتهاج وتهليل مترنمين مبتهجين. وبينما هم كذلك إذا بشمس وجه راعيهم قد أشرقت عليهم من سفينة منفاه وما بان لهم قوامه الهزيل إلا واحتاطت به الزمر كاحاطة الهالة بالقمر فنزل في مكان خارج أبواب المدينة . ولم يرد أن يدخلها في أول الأمر إلا بعد التئام مجمع تعرض عليه تلك الامور حتى تظهر له هذه المظالم والتهم التي نسبت اليه ظلماً وعدواناً ولكن الناس اثنوه عن عزمه والتمسوا منه أن يدخل المدينة فأجاب سؤالهم ودخل المدينة بين تهاليل الجمهور وفرحهم بقدومه وما زال سائراً إلى أن وصل إلى كنيسة اجياصوفيا وهناك أجلسه الشعب على كرسيه وطلبوا منه ان يسمعهم صوته المحبوب فقال « أية كلمات انطق بها ؟ كل ما أستطيع ان أقوله هو : باركوا الرب . هذا ما قلته لكم عند انفصالي عنكم والآن إذ أراني بينكم ايضاً اكرر هذه الكلمات . اني لم اكف عن تكرارها يوم كنت منفياً. فليكن اسم الرب مباركاً إلى الابد. لما كنت منفياً حمدت الرب والآن عند ارجاعي أواظب على حمده ان الشتاء والصيف يختلفان كثيراً إلا أن الباري تعالى خلقهما لغاية واحدة هي اخصاب الحقول. مبارك الرب الذي سمح بنفيي ومبارك اسمه الذي دعاني لأرجع . مبارك اسمه القدوس الذي سكن العاصفة وأعطانا سلاماً . إذا حدث خير فلنحمد الرب ابيقى الخير. وإذا وقع أمر محزن فلنبارك الرب ايذهب الشر . لما كان أيوب غنياً قدم الشكر لله ولما أمسى فقيراً شكره أيضاً . إن نفيي وارجاعي هما عمل يد أبويه» اه .

وهكذا ابث مدة وهو يلقي من فيه الدرر والغرر والجموع حوله تكاد تطير فرحاحتى اضطرب فؤاد أفدوكسيا وأرسلت تقول له «أيها الآب صلواتي سمعت وطلباتي أجيبت ومقاصدي تمت وتحصلت على تاج يفوق على تاج الملك نفسه حيث عاد البطريرك لأولاده فعاد الرأس للجسم . قد عاد رئيس السفينة اليها بل الراعي لغنم رعيته . بل عاد رب البيت اليه » اه وفي اليوم التالي ألقى يوحنا (باخلاصه المعهود) موعظة أخرى فيها شكر الامبراطورة بل دعاها أم الكنائس وحامية القديسين وعكاز الفقراء الخ ! !

الفصل العاشر

تمثال افدوكسيا — موعظة مشئومة — نفيه الاخير وموته

لما رجع فم الذهب إلى مقر وظيفته من منفاه بتدبير العناية الالهية انتاب الذعر أعداءه وولوا الادبار هاربين. فسافر ثاوفيلس إلى الاسكندرية خصوصا بعد أن علم أن الشعب ناقم عليه ومزمع أن يطرحه في البوسفور وهرب سافريانوس إلى جبالة أي أبروشية . وهكذا انتهى هذا الجمع (مجمع البلوطة) وتشتت أعضاؤه أمام الحق حتى ان فم الذهب قال مرة بعد رجوعه بقليل « الكنيسة كثيراً ما يهجم عليها الاعداء غير أنها تستظهر أبداً فكلما اشتد الاضطهاد عليها تقوت وازدادت . أين الذين أرادوا خرابها ؟ اني أذهب الى الشوارع والازقة لكن لا أرى منهم واحداً . من يا ترى يطاردهم ؟ لا أحد غير أن الضمير هو العدو الذي يبكتهم على الخطية التي اقترفوها والذي يملأ نفوسهم خوفاً » اه

بيدأن عطف أفدوكسيا على البطريرك لم يدم طويلا وذلك لعدم ملاءمة طباعهما لبعضها ولعدم اتفاق مشاربهما. فأفدوكسيا كانت متغطرسة ميالة للهو والعجب وفم الذهب كان يمقت كل هذه المساوىء بل كثيراً ما كان يعظ ضد النساء العالميات حتى أنها استاءت من هذه المواعظ وأخذت مراجل العداوة تغلي في داخلها مرة أخرى . وعليه فلم يسترح فم الذهب إلا مدة شهرين بعد رجوعه من منفاه ثم بادأه خصومه بالعداوة والرداءة ولم يمض هذا الوقت القصير إلا وحصل أمر مكدر للغاية كانت العداوة نتيجته أشر من الاولى .

وتفصيل الخبر ان افدوكسيا مع حقارة اصلها لم تلبث ان تحرض زوجها المسكين على تمجيدها اكثر فأكثر مع انه كان قد رقاها حديثاً الى درجة امبراطورة (عوضاً عن « زوجة الامبراطور ») ولقبها أوغسطا التي معناها امبراطورة : ومع ذلك فلم تكتف بهذا الشرف الفريد في بابه . بل تضرعت اليه ان يقيم في كل عاصمة من عواصم المملكة تمثالاً لها لكي يقدم لتمثالها شبه عبادة. وأما في القسطنطينية ذاتها فاقام الامبراطور تمثالاً ثميناً جداً اساسه من رخام سماقي والتمثال نفسه من فضة خالصة ، وليس ذلك فقط بل اختارت ان ينصب تمثالها الجديد في الساحة العمومية امام كنيسة اجيا صوفيا .

وفي يوم الاحتفال بتنصيبه اقيمت المراقص والالعاب السخرية وازدحمت المحلات العمومية بالناس على اختلاف انواعهم وطبقاتهم فازدانت لهم الخلاعة بثوبها الزاهي فاسكرتهم بخمرة الملاذ والملاهي وانهمكوا في امور هي غاية في الشر والرداءة فكان هناك مجون ورقص وتقليدات هزلية و بذلك اعادوا ما كان عليه آباؤهم من قبيح الفعال مدة احتفالاتهم في اعيادهم المذمومة الوثنية قبل تدينهم بالديانة الطاهرة المسيحية .

اما فم الذهب ذلك الرجل الشجاع الذي لم يعبأ بصعاب الامور ولم يكترث اذا حلت الاهوال أو دهمته المصائب فقام بشهامة فائقة وغيرة مقدسة وندد بهذه الافعال وصار يلقي المواعظ المؤثرة الروحية و يقبح للناس ماهم عليه من الرذائل وكيف ان هذا العالم وشهواته فان زائل وكانت اقواله بلهجة شديدة يظهر منها نار غيرته وجمر الحزن الذي ملأ فؤاده عند ما رأى الناس

منعكفين على اقامة تلك المحافل المالية ويحتفلون بها حتى امام الـكنيسة فيشوشون على جماعة المسيحيين المصلين في بيعة الله .

اما أعداء فم الذهب فرأوا الفرصة سانحة ليبلغوا الامبراطورة عنه ما ارادوا فصاروا يترقبون أقواله ويبلغونها لها مصوغة في قالب التزوير والبهتان كيفما تقتضي اهواؤهم . ولما كان عيد يوحنا المعمدان ابتدأ فم الذهب بالوعظ عن هيروديا وهيرودس وأكد الناس للامبراطورة انه بدأ موعظته بقوله « قد ظهرت هيروديا أيضاً وقد عادت الى الخلاعة والى طلب رأس يوحنا » ولذلك امتلأ قلبها حقداً وغيظاً واستعدت لتوقع به مرة أخرى [(١)]

وكان غيظها في هـذه المرة متجاوزاً كل حـد فالتجأت الى زوجها الامبراطور واغرته بالتخلص من البطريرك. وبعد قليل حضر الى القسطنطينية سافريانوس وكاكيوس وغيرهما من الاساقفة والرعاة وقلوبهم مملوءة غيظاً وحنقاً على فم الذهب وقد آلوا على انفسهم في هذه المرة ان يهلكوه لا محالة. وكان فم الذهب قد طلب عقد مجمع لتفحص فيه دعاويه فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة وعقدوا هذا المجمع واجتهدوا في ان يمنعوا عن الحضور كل رجل أبي النفس شجاع في تنفيذ الحق وارادوا ان يجعلوا كل اعضائه من خصوم البطريرك

(١) يؤكد القس فرر (رئيس كاتدرائية كنتربري الذي اشرنا اليه سابقاً) ان اعداء البطريرك زوروا نسخة الموعظة التي قدموها الى الامبراطورة لانهم اخذوا النسخة الاصلية (التي كتبها كاتب الخط المختزل) وادخلوا عليها الكلمات عن هيروديا الخ ثم بيضوها ثانية ويقول حضرته ان الصورة المزورة كانت لا تزال موجودة حتى يوم تأليف كتابه في حياة فم الذهب(اي سنة ١٨٩٥م) ويظهر التزوير من الفرق الواضح بين اسلوبه وبين اسلوب فم الذهب . اه وقال غيره ان الموعظة كانت مزورة بكليتها! والدليل على التزوير هو اسلوبها الرديء

الذين أرادوا به سوأ فدعوهم للحضور . اما ثاوفيلس فلم يحضر معتذراً عن نفسه بعذر لطيف وهو قوله « انه لشدة تعلق اولادي الاسكندريين بي لم يسمحوا لي بالذهاب إلى القسطنطينية مرة ثانية » ولـكن السبب الحقيقي هو ان أهالي القسطنطينية كانوا يمقتونه مقتاً شديداً وخشي ان يسود الحق مرة ثانية ويرجع بصفقة المغبون ولـكن يقال انه كان يرسل سراً بما يعن له من الامور .

وفي أثناء انعقاد المجمع تلقى رسالة من ثاوفيلس مفادها ان القانون الثاني عشر من قوانين مجمع انطاكيا المنعقد سنة ٣٤١م قرر «ان الاسقف اذا عزله مجمع ما لا يسوغ ارجاعه الا عن يد مجمع آخر اعظم من الاول وان الاسقف اذا التجأ الى الامبراطور بغية رجوعه الى وظيفته بدون تبرئة المجمع له يجب عزله ابداً من الوظيفة الاسقفية » اه وبناء على ذلك تمكن المجمع من تأييد حكم المجمع الاول على فم الذهب وحرمه حق الاحياء وقطعه من الشركة وتسليمه الى سلطان الحكم المدني . أما هو فلم يتأثر من كل هذه الاعمال بل كان قلبه ملآناً من السكينة والسلام شأنه في كل الاحوال والظروف .

ولما كان عيد الفصح (القيامة) قريباً خشي خصوم فم الذهب ان يذهب الامبراطور الى الـكنيسة الـكبرى في عيد الفصح وان تحمله محبة الرعية لاسقفهم على مصالحته فحضروا الى البلاط بايعاز من اندوكسيا وخاطبوا الامبراطور هكذا « قد ثبت لدينا جرم فم الذهب واننا نرى من اللائق بل الواجب ابعاده قبل الفصح» وظلوا يحضون الامبراطور حتى ارسل يأمره بترك الـكنيسة أما هو فأجاب على ذلك بقوله «ان الله سلمها الى عهدتي ووكل

اليَّ العمل فيها لاجل خلاص النفوس ولايمكن تركها من ذاتي مطلقاً ان المدينة هي للامبراطور فليستعمل القوه لا بعادي حيث اذهب دون ان اجرح ضميري » اهـ

و بينما كان فم الذهب محتفلاً بعيد الفصح ومن حوله جماعات المؤمنين الذين حضروا للصلاة وخصوصاً لمشاهدة عماد المئات من الموعوظين الذين اكتسبهم بتعاليمه ومواعظه واذا بفرقة من الجند هجمت على الجميع واستعملت معهم ما استطاعت من انواع التوحش ففرقت جمعهم ومزقت شملهم . وقال من شاهد ذلك بعينه انه لا يمكن وصف فظاعة تلك الحادثه الشنيعة لان دماء الابرياء جرت فتخضب بها ماء المعمودية وهرب الذين كانوا يريدون ان يتعمدوا وهم منزعجون مضطربون وغير مصدقين بنجاتهم .

أما البطريرك فكان يحاول بكل اجتهاده ان يجتمع بهؤلاء الذين يريدون العماد في أي مكان آخر لـكي يمكنه تأديته لهم ولـكن لم يمكنه ذلك لانه لما حصل هذا الاضطهاد بالـكنيسة اخذهم واسرع بهم الى حمامات الامبراطور قسطنطين الـكبير لتعميدهم هناك واذا بقوة عسكرية فاجأتهم هناك ايضاً فشتتتهم فتوجه بهم ثالثاً واجتمع معهم في جهات خارج المدينة فلحقوهم هناك . لا تسل أيها القارىء العزيز عما الحقوا بهم من انواع الخشونة والاهانة والافعال البربرية حيث قتلوا بعضهم وجلدوا الـكثيرين منهم وسجنوا على الخصوص اصحاب فم الذهب ولم يمض إلا القليل حتى أصبحت السجون ملأى بالمسيحيين ولما اجتمع هؤلاء القوم المساكين في سجونهم جعلوا يصرفون اوقاتهم في الترتيل والصلاة حتى قال أحد مؤرخي ذلك العصر « إن السجون تحولت إلى كنائس والـكنائس إلى مغائر لصوص »

و بعد هذه القلاقل عاد النظام فظهر أعداء فم الذهب وكأنهم انتصروا على عدو لدود أما أتباعه فصار يطلق عليهم لقب (اليوحنيين) وكانت تطاردهم الحـكومة أينما اجتمعوا فتشتت شملهم و إذا تجاسر البعض منهم بالدخول في إحدى الـكنائس فكان يلاقي من العذاب ألواناً بل إنهم لم يكفوا عن أذى فم الذهب نفسه، فذات يوم وجد عبد مخبوء حول قصره و بيده خنجر و بالفحص عنه وجد أن أحد الـكهنة استأجره بمبلغ خمسين ديناراً تلقاء قتل فم الذهب ولذلك قام أصحابه يحرسونه ليلاً ونهاراً

وكان الامبراطور أركاديوس قد خشي أن يصدر الحكم بنفي فم الذهب خوفاً من عقاب الله ولكن جاءه أربعة أساقفة وطلبوا منه أن يصدر أمراً نهائياً بنفيه وأنهم يتخذون على أنفسهم كل المسئولية وداوموا الالحاح عليه طلباً بذلك حتى أصدر أمراً ملوكياً ثانياً بنفيه وذلك في ٢٥ شهر يونيه سنة ٤٠٤م

ولما شعر فم الذهب أنه لابد من استعمال القوة الجبرية لقهره على تسليم وظيفته عزم على الخضوع شاعراً أنه مبرر في هذا العمل واتخذ كل الوسائل اللازمة لمنع سفك الدم وغير ذلك مما يمكن حدوثه لو قاوم الشعب إنفاذ أمر أركاديوس . ولما أتاه الأمر القاضي بنفيه كان حينئذ محاطاً بجماعة من الأساقفة والرعاة فقال لهم «لنذهب إلى الكنيسة لنودعها» ولما كانوا فيها جثا على ركبتيه وصلى ثم عانق الأساقفة وعيناه تذرفان الدموع . وكأنه شعر بان هذه آخر مرة فيها ترى عينيه أولاده المؤمنين مجتمعين حوله . ولما وقع خبر الوداع على مسامع

الجميع حتى جرت من عيونهم الدموع وانفطرت منهم القلوب . ثم أوعز إلى الأساقفة أن ينتظروه ودخل حيث العذارى الشماسات والأرامل الصالحات فقال مخاطباً إياهن حيث رآهن يبكين «لماذا تبكين وتكسرن قلبي لأني مستعد لأجل المسيح ليس أن أنفى فقط بل أن أموت أيضاً . هلموا يا بناتي واصغين لي قد انتهى أمري واكملت سعيي وربما لا ترين وجهي أيضاً . فلا تفتر إحداكن عن تقديم الصدقات التي كنتن تقدمنها إلى الكنيسة . إذا عين أسقف في مكاني باجماع الأصوات وحصل على الاسقفية بدون دسيسة فاخضعن له خضوعكن لي إذ لا يمكن أن تبقى الكنيسة بدون أسقف» ثم سار مسرعاً نحو الباب الشرقي وخرج دون أن يرجع إلى الأساقفة لكي لا يحصل شغب وسلم نفسه بلطف إلى الجنود فذهبوا به إلى المرفإ وأنزلوه في قارب صغير سافر به إلى بيثينية .

أما فم الذهب فقد قاسى في طريقه إلى منفاه آلاماً كثيرة ومشقات عديدة ولكنه كان مسروراً لأنه حسب مستأهلاً أن يتألم لأجل الحق. وقد أخذ أولاً إلى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فلبث فيها مدة ينعش فؤاده الجريح وجسمه المضنى بلطف هوائها وقد خال أنه وصل إلى منتهى الامر ولكن مما زاد في كسر خاطره المتفجع وأحزن قلبه المتوجع وصول الخبر اليه أن منفاه سيكون كوكوسوس في جبال طوروس فسفره لم يزل طويلاً متعباً شاقاً لا سيما وان جسمه أصبح مهزولاً نحيفاً لا يستطيع أن يحتمل مشاق الأسفار . ولكنه بكل خضوع وبتمام الخشوع سلم لارادة الله وأظهر امتثاله لقضائه العالي واستعد لقبول متاعب الارتحال في الوعور والوهاد والجبال فقاموا به إلى إقليم كوكوسوس حيث

الصعوبات والمشقات وحيث يحيط به اللصوص الاشرار وتكتنفه المخاوف والاخطار وكل ذلك لم يقلل من غيرته على شعبه بل لم تزل متقدة في قلبه فكتب الى احد قسوسه يقول « اني اكاتبك الآن لكي احثك على اتمام ما نصحت لك به وان رأيت بحر هذا الاضطهاد قد هاج وتعالت امواجه الى السحاب والسماء فلا تهمل شيئاً واحداً مما أنت ملتزم به اهدم نفاق الوثنيين، شيد كنائس واهتم بخلاص النفوس ، فان رئيس المركب لا يترك الدفة لأجل مصادمة الامواج ولا الطبيب يهمل المريض لأجل خطر مرضه ؛ فلا تضطرب اذاً من الشرور الآتية لان الله سبحانه لا يحاسبنا على ما يمسنا من الشر بل انه عز وجل يجازينا من أجله اذا احتملنا بصبر . واذا ما تغاضينا عن خدمته تعالى وأهملنا ما يتعلق بعبادته وخدمة كنيسته فلا يمكننا أن نعتذر لديه بعدم مناسبة الزمن أو بشدة الاضطهاد لان بولس الرسول وهو موثق ويونان في بطن الحوت والثلاثة فتية في اتون بابل كانوا يقومون بما يجب عليهم فاقتد بهم مهتماً بخير الكنائس واكتب لي كم كنيسة بنيت في هذه السنة ؟ ومن هم الذين مضوا إلى فينيقية ليخدموا هذا الكرم الجديد وماذا يرجون هناك من الخير ؟ » اه

ومع انه كان منحرف الصحة فضلاً عن ان الحوادث الأخيرة أثرت في جسمه كثيراً لكنه كان مسروراً لا تعلوه كآبة ولا يتسرب اليه لهف ويتضح ذلك من رسالة ارسلها الى اولمبياس الشماسة الشهيرة المذكورة آنفاً « كلما ازدادت اتعابي ازداد اعتيادي أيضاً . اني مسافر على بحر كثير العواصف والانواء غير

ان سلامي عظيم كسلام الملاح عند وقوفه على المينا . اني في خير وسلام والامر الوحيد الذي يحزنني هو اني لا اؤكد انك فرحة » اه

وكان لا ينقطع عن كتابة الرسائل العديدة لتعزية أصحابه وكل تلك المحن التي حاقت به لم تثن عزمه ولم تجعله ان ينسى رعيته التي كان يعزيها برسائله الملآنة بعبارات العزاء الروحي والنصائح الحكمية الصادرة عن الشفقة الابوية نحوهم وكان يحذرهم كثيراً ويحسهم دائماً على عدم فتورهم في الايمان . وعند ما وصل إلى انقرا عاصمة غلاطية نزل فيها العسكريان المحافظان عليه بقصد الراحة قليلاً . ولما بلغ لونتيوس اسقف غلاطية خبر وصوله ، مع انه كان من اعدائه الالداء الذين عملوا كثيراً ضده فانه رق لحاله واكرم ضيافته . وبعد ذلك قام العسكريان وجدا به في السير الى أن وصلوا إلى قيصرية وهناك استقبله أناس أخبروه بأن الأسقف فاريتريوس كان قد استعد ليحسن وفاته . وان لم يصدق فم الذهب كلامهم لكنه على كل حال لم يعارض في الأمر فدخلوا المدينة وقام كثيرون من الأهالي لاضافته وسبب ذلك أن اكثر القسوس (بخلاف الرهبان) كانوا « يوحنيين » وأما الأسقف المنافق فاختفى خوفاً من غضب الامبراطورة وبعد يومين اثنين جاء خبر بأن جماعة من البدو قد غزوا على ضواحي المدينة وعند ذلك خرج كل الجنود لملاقاتهم . ثم قام عصبة من الرهبان المتعصبين وهجموا على منزل يوحنا (ويقال أن اسقف قيصرية المنافق كان قد دبر تلك المكيدة ضد البطريرك المخلوع) وبعد اخراج يوحنا المريض الزموه بالفرار . ولكن لما رأى الله عبده ولا معين له أرسل اليه سيدة شريفة من أهل قيصرية صاحبة أملاك واسعة وغناء وافر فاستدعته ليقيم في بيتها وعرضت عليه انها مستعدة لتجعل رجالها يدفعون عنه شر الرهبان ولكنه لم يشأ ان يقابل الشر بالشر لم يكد يشعر براحة قليلة في بيتها إلا والعسكريان اجبراه على مداومة السير فاخذاه وسارا به كالاسير وهو مستسلم لارادة القدير

وقد نفي رجل الله إلى تلك البلاد القاصية التي كان اكثر أهلها من الوثنيين واغلبهم لا يألفون الناس وظن اعداؤه بأنهم يقتلونه ولكنهم استأنسوا به بل بشرهم ببشارة الخلاص وصيرهم مسيحيين ولكثرة المؤمنين لزم ان يرسم لهم سبعة اساقفة وبعض الرعاة لتدبير هذه الرعية الجديدة فبلا ريب ان المناداة بالانجيل بين الامم كانت من اعز الاشياء لدى فم الذهب . وقد سعى اصحابه كثيراً حتى يجعلوا مقر منفاه مدينة يحصل فيها على الراحة والصحة غير ان اعداءه اجتهدوا حتى اصدروا امراً بأن تعين له مدينة كوكوسوس وهي بلد حقيرة مناخها مضر بالصحة فضلاً عن كونها عرضة لغزوات قبائل الاشوريين البربرية ولما بلغه ذلك خار عزمه الى التمام وقال «آه هل غادرني اصدقائي بالقسطنطينية » ثم كتب الى الشماسة ثيودورة يقول « لِمَ لم تستطيعوا ان تحصلوا لي على ما يحصل عليه المجرمون؟ ولكن ليتبارك اسم الرب اني لا اكف عن مباركة اسمه المجيد حتى في هذه المصيبة العظمى» ولم يزل سائراً حتى وصل الى كوكوسوس وقد سهلت له العناية الطريق امامه اكثر كثيراً مما كان ينتظر فنزل في بيت ديوسقورس الغني الذي استدعاه للسكنى عنده ورتب له كل ما يلزم لراحته .

وقد بلغه في ذلك الحين ان كنيسته وقعت تحت الاضطهاد وان اصحابه في القسطنطينية امسوا هدفاً لتعديات خصومهم فاغتم لذلك وارسل اليهم

يقول — «لا يخر عزمكم أيها الاحباء فانه لا شيء يروع المؤمنين إلا الخطية فلطالما نبهتكم الى ذلك وعلمتكم ان كل شيء سواها لا يعتد به البتة فلا تخافوا البغضة ولا الشكايات ولا حجز أموالكم ولا النفي ولا السيف ولا عداوة العالم بأسره كل هـذه الاشياء زائلة فلا تضر النفس ولا تؤثر إلا في الجسد فلم ترتاعون ؟ ألستم تعلمون ان المسيح قد صلب وان باراباس قد اطلق ؟ هل تزداد الكنائس إلا بالضيقات والآلام ؟ » اه

وكان لفم الذهب بعض التعزية في ورود أخبار سارة عن المرسليات التبشيرية في فينيقية التي أدارها من منفاه الجبلي ، وأيضاً مما كان يلاقيه من الشعوب التي مر بها من الاحتفاء بهوا كرامهم اياه.وايضاً من الرسائل التي كان يكاتبه بها أصحابه والرسائل التي كان يجاوبهم بها حتى ازداد نفوذه في كل المملكة وأرسل اليه جميع طبقات الناس يستشيرون رأيه في الامور الهامة . وقال العلامة استيفنس مؤلف حياة فم الذهب — « إن عظمة ونفوذ بطلنا ونبالة استسلامه للنفي والآلام والمصائب المتنوعة جعلا المؤرخ جبون يمدحه» (ومعلوم ان جبون لم يكن ليميل الى جانب المسيحيين الذين كتب عنهم في تاريخه [1] العظيم) قال جبون « ان كل لسان كرر ذكر فضائل فم الذهب بعد نفيه وكل العالم المسيحي التفت بانتباه و باحترام الى صحراء قاحلة بين جبال طوروس » (حيث المنفى) .

وفي بدء سنة ٤٠٧ اظهر رجاءه بالرجوع الى القسطنطينية ويتضح ذلك من خطاب أرسله الى اوليمباس فيه يقول « انه لو لم يكن من المحتم وقوع هذه

(١) تاريخ انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية

الامور عليَّ لكنت رحلت منذ زمان طويل مضى من هذا العالم لأنه يظهر لي مما شاهدته واختبرته من تجارب عديدة انني خصصت بل دعيت لاتكبد حصول كل هذه المتاعب لاني جزتها جميعها وأنا في غاية الصحة التامة والامان والاطمئنان . بل ومما أدهش جميع سكان ارمينيا (الارمن) هو كيف ان جسماً نحيلاً كجسمي أوهى من نسيج العنكبوت قدر ان يتحمل هذا البرد الذي لا يطاق بل كيف امكن لمثلي ان يعيش فيه بينما أولئك المتعودون على الشتاء القارس يتأففون من برودته و يتأثرون من شدته كثيراً جداً ومع كل ذلك فلا عدم موافقة الهواء هنا لصحتي — ولا وحشة المكان — ولا قلة الزاد — ولا عدم توفر الأدوية والعقاقير — ولا قلة الأطباء الماهرين — ولا صعوبة العزلة — أو بعبارة أوضح حبسي في غرفة واحدة ولا احتياجي للكساء الذي هو أهم الضروريات لي — ولا تعكير صافي جو الحياة بدخان المصائب والنوائب — ولا مخافة اللصوص ولا ضيق الحصار عليَّ ولا أية صعوبة أخرى لحقتني — أو شدة داهمتني قدرت على ملاشاتي أو اهلاكي . بل انما تجدينني أنا هنا يا اوليمباس في صحة أحسن مما كنت عندكم » اه

ولما رأى أعداؤه ازدياد نفوذه قاموا وقعدوا وتآمروا على ايصاد هذا المنفذ بتغيير مكان المنفى لكنهم لم ينجحوا في ذلك إلا في صيف سنة ٤٠٧ أي بعد مكثه نحو ثلاث سنوات في كوكوسوس وأخيراً غلبوا على رأي اركاديوس فرضي بنفي يوحنا الى أقصى المملكة الى بلدة بتيوس عند جبال القوقاس على شاطىء البحر الأسود وقد تفنن أعداؤه في اختيار هذه البقعة القاحلة والنائية لكن غرضهم الوحيد كان قتله بأسرع ما يمكن فاحتمل الرجل الصبور كل

ما كان يضاف على كأس آلامه لا سيما وان الجنديين اللذين انيطا به كانا يسيئان معاملته نظراً لشراسة اخلاقهما فكانا يسيران في وقت انهيال المطر وفي اشتداد حرارة النهار ولم يمهلاه أن يرتاح قليلاً حتى ولم يسمحا له بقليل ماء وقت عطشه أو إذا أراد الاستحمام كعادته بل بكل خشونة وفظاعة وتوحش زائد كانا يحثان مطايا الاسفار ويجدان السير به في الليل والنهار بقصد تعذيبه أو تقصير أجله بمعاملته بلا رحمة ولا شفقة لانه كانت قد أعطيت لها أوامر سرية ووعد بالترقي السريع ذا مات يوحنا أثناء السفر ولكنه والأسف ملء الفؤاد لشدة ما قاساه من أنواع العذاب وتحمله من مشاق الأتعاب أخذت العلل تنشر أجنحتها عليه حتى كتب بذلك إلى تلميذته اوليمباس يقول — « اني أكتب اليك من شفير الحفرة التي كاد الموت يدهورني فيها — قد كابدت الأهوال في الشهرين الماضيين بل قاربت الموت فكأني كنت عائشاً للالم فقط لأن الأوجاع التي اكلت لحمي كانت مبرحة للغاية حتى طال ليلي ولم تكن مدافعة البرد الشديد مطلقاً فظللت ملازماً مخدعاً صغيراً تحت عدد من اللحف ولا أستطيع أن أقوم من الصداع وغيره من أنواع الألم» فيا لها من سفرة متعبة ومؤلمة لهذا الشيخ المريض! كان أعداؤه قد انتصروا عليه من كل وجه حتى اضطروه للمشي على الأقدام بغاية السرعة وذلك في أواسط الصيف فضربت أشعة الشمس على جسمه النحيف المحموم حتى (كما قال بلاديوس) أصبح كتفاحة أوشكت أن تقع من غصن الشجرة

كل تلك الأتعاب قد أنهكت جسمه فخارت قوته وأمسى لونه شاحباً وظهرت عليه علامات الموت القريب . وفي شهر سبتمبر من تلك السنة وصل

أسير الحق والفضيلة الى مدينة كومون لكنهم لم يسمحوا له بالجلوس بل ساقوه أمامهم كأن الشوارع كانت (كوبرياً) فقط وأخيراً وصلوا الى الضواحي الى قبر باسيليكوس الشهيد وبجواره كنيسة صغيرة فنام فيها فم الذهب تلك الليلة وبينما هو نائم تراءى له الشهيد في حلم وقال له « ثق أيها الاخ فاننا سنجتمع غداً » (١)

فأخذت فم الذهب شدة الطرب لان ايمانه الثابت بالوطن السماوي قد تحقق ويحق له ان يهتف مع القائل « جاهدت الجهاد الحسن . . . وأخيراً وضع لي اكليل البر» (٢ تي ٤:٨) ولما قام في الصباح التمس من العسكريين ان يبقيا به هذا اليوم ولكن نظراً لقسوتهما جدا به في السير ولم ينظرا الى حالته التعيسة ولكن ما قطعا به فرسخاً حتى ظهرت عليه علامات الموت في القريب العاجل فاضطرا أن يرجعا به إلى تلك الكنيسة ثانية ولما وصلوا رفعاه إلى الهيكل وساعداه على لبس ثياب بيضاء وجعل يجري عشاء الرب وتناول منه وبعد ان صلى الصلاة الاخيرة رقد في الرب ودخل الى الراحة الابدية وكان ذلك اليوم الرابع من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ٤٠٧ وكانت آخر أقواله الكلمات المحبوبة لديه دائماً وهي —

« المجد لله في كل شيء »

فنم أيها البطل لانك من ضمن الذين —

ماتوا على حب الحمل   طوبى لهم بين البشر
نجوا من الاوجاع وال   آثام من دون خطر

(١) هذه الرواية ذكرها العلامة ميرلدوبينه وجميع المؤرخين الذين كتبوا تاريخ فم الذهب

غابوا الى عرش الاله ‏ ‏ بالأمن عن دار الشقاء
فكل أتعاب الحياه ‏ ‏ قد انتهت في ذا الجزاء
أفراحه دائمة ‏ ‏ بعد المات للابد
يا رب كن لي صاحباً ‏ ‏ فأنت عوني والمدد

وأنت من الذين يقال فيهم —

طوبى لمائت ‏ ‏ بربنا يسوع
إذ تنتهي أتعابه ‏ ‏ بهجر ذي الربوع
تظل نفسه ‏ ‏ في حرزه الحريز
لان موته لدى ‏ ‏ فادي الورى عزيز
يكون في العلا ‏ ‏ مع الممجدين
يشاهد الذي فدى ال ‏ ‏ انام كل حين

رقد فم الذهب بعد ان بلغ من العمر ستين سنة منها سبع سنوات بطريركاً وثلاث سنوات في المنفى ودفن في الكنيسة بجانب قبر باسيليكوس الشهيد فتقاطر الى جنازته جمع غفير من البلدان المجاورة وهناك ارتاحت قدماه الطاهرتان اللتان طالما انتصب عليهما خطيباً وواعظاً وطالما سعتا في نشر كلمة الخلاص . وسكن الفم الذهبي الذي كان ينثر الدور الغزال وهمدت تلك الاعضاء التي كانت تتقد غيرة على صليب المسيح والتي كثيراًما قاست أنواع الآلام والعذاب لاجله مدة طويلة — هكذا كانت وفاة ابلغ واعظ واشهر راع في القرون الاولى

« عزيز في عيني الرب موت أتقيائه »

الباب الثالث

(١)

(القسطنطينية بعد نفي فم الذهب)

قال بلاديوس الذي كتب تاريخ حياة فم الذهب انه لما اخذوه خرج ملاك الكنيسة وتركها أما هو فكان يحيط به اينما ساروا ورحلوا به فزهقت ارواح ابنائه شوقاً اليه وصارت قلوبهم متجهة اليه وما خرج من المدينة الا وشبت النار شبوباً هائلاً في الكنيسة الكبرى فصيرتها رماداً واثراً بعد عين وكذلك احرقت جميع البيوت الشاهقة التي كانت على جانبي الساحة العظمى فاتخذ اعداء البطريرك هذه الحادثة ذريعة للانتقام من اصحابه ومحبيه وجعلوا ينكلون بهم اشر تنكيل ويا لشدة ما قاسوه ويا لمرارة ما شربوه من اضروب العذاب قصاصاً على تلك الحريقة ولم يشفقوا على النساء اللواتي افرزن انفسهن لخدمة الكنيسة فدعوهن لكي يسألوهن عمن فعل تلك الفعلة الشنيعة واحضروا اولاً اوليمباس الشماسة التقية الشهيرة التي انفقت كل اموالها على الفقراء والكنيسة وقبل ان تقف امام القاضي عذبها القواد عذاباً شنيعاً ولما رآها الحاكم صرخ قائلاً « لماذا وضعت ناراً في الكنيسة الكبرى؟ » فاجابته «ان حياتي كلها ايها الحاكم جواب كاف على هذا السؤال . قد كنت على جانب عظيم من الغنى والجميع يعلمون اني صرفت الاموال الباهظة في بناء الكنائس وتزيينها فهل اتهافت على حرقها الآن!» ومع ذلك فقد عذبوا النساء الفاضلات فضرب

بعضهن ومزقت اجسادهن بالمسامير الحديدية حتى ماتت الكثيرات منهن تحت العذاب .

و بعد ان رحل فم الذهب من القسطنطينية اقيم بدله ارساكسيوس وهو اخو نكتاريوس البطريرك السابق لفم الذهب بطريركاً عليها وهذا كان على جانب عظيم من البطء لكبر سنه اذ انه بلغ من العمر الثمانين سنة ولم يكن الا آله صماء في ايدي ذوي الاغراض الفاسدة وقال عنه بلاديوس انه كان رجلا ساذجاً هادئاً بطيئاً لا يليق لاي عمل مهما كان .

ولاجل هذا خلت الكنائس من المؤمنين فكان يجتمع اتباع فم الذهب في منعكف الشوارع وفي اطراف ونواحي المدينة وفي بعض المزارع ومع ذلك فكان الاعداء يعملون على تفريق جامعتهم والتنكيل بهم اينما اجتمعوا وكل من كان ينتصر للحق في مسألة فم الذهب هذه كان يجرد من حقوقه ويحرم من وظيفته وينفى اخيراً .

وحيث لم يوجد لهم معين آخر استغاثوا باساقفة الغرب وبالاخص أرسلوا رسائل استرحام الى اسقف (بابا) رومية والى اسقف ميلانو. نعم ان ثاوفيلس كان قد سبق فاستغاث بانوسنت الاول اسقف رومية لكن الاخير لم يبت في المسألة حتى ورود رسائل « اليوحنيين » المضطهدين في ضواحي القسطنطينية ثم حكم بالغاء خلع فم الذهب بانياً حكمه على الحقيقة ان مجمع البلوط الذي اجتمع بخلكيدون كان غير قانوني بالمرة ثم اضاف الى ذلك انه اذا كان ثاوفيلس لا يزال يريد الحكم على يوحنا فعليه ان يحضر مجمع مسكونياً قانونيا . وبعد ارسال ذلك البلاغ بأيام قليلة حضر الى رومية رسول من قبل ثاوفيلس ومعه

«محضر مجمع البلوط» وعندما قرأه انوسنت وادرك خفة وسفسطة التهم المرجهة الى فم الذهب استشاط غيظاً وكتب الى ثاوفيلس توبيخاً شديد اللهجة ثم جعل يسعى أمام الامبراطور هنوريوس (حاكم القسم الغربي[1] من المملكة الرومانية) الغاء حكم أخيه اركاديوس الضعيف : لكنه لم يفلح في ذلك .

وما مضى على نفي فم الذهب نحو العام ونصف الا وتغير الحال وكأن الدهر اخذ يحدر حكمه الذى لا يبرم فتوفي البطريرك ارساكيوس الشيخ الهرم الهزيل وهكذا توفيت بعده الامبراطورة افدوكسيا أصل الاضطرابات أثر نفاس مؤلم جداً فولدت طفلها ميتا وماتت هي ايضاً فمال الزمان وتغير الكيان وتحقق الكثيرون براءة فم الذهب فحزنوا لفراقه وصاروا يندبون سوء طالعم [illegible]ا حل بين ربوعهم من الاحزان بسببه .

وحدث ذات يوم ان ناسكا ورعا من جبل سيناء يدعى نيلوس وكان قبلا تلميذاً لفم الذهب أوقف الامبراطور على حقيقة الامر تماما . ولما عادت الزلازل والعواصف إلى العاصمة مرة اخرى وأخذت توقع الرعب في قلوب أهلها ولاسيما الامبراطور طلب هذا من أخصائه أن يصلوا إلى الله لاجله لكي يحفظه في وسط هذه الاخطار المحدقة به فأجابه الناسك « كيف تتخلص القسطنطينية من الزلازل ومن نيران السماء بينما يرى فيها فواحش أشر كثيراً من كل ما اصابها وبينما يسمح للاشرار أن يسودوا بكبريائهم بعد أن نفيت عمود الكنيسة نور الحق نذير المسيح أعني به الاسقف يوحنا. كيف تطالب إليّ أن

(١) كان لكل من العاصمتين رومية والقسطنطينية امبراطور وكان هنوريوس واركاديوس الامبراطورين نجلا ثيودوسيوس الكبير .

اصلي من أجل هذه المدينة التي لا يزال غضب الله يهزها والرعود تقصف فوقها مع ان نيران الغم قد اكلتني . الا اني اتعجب من جراءة كثيرين على نبذ القوانين وطرح العدل في زاوية النسيان.لقد سمحت للاشرار ان يخدعوك بحيلهم فطردت من القسطنطينية نور الكنيسة العظيم » اه

ولم يكن هذا هو التوبيخ الوحيد الذي وجه للامبراطور من جراء نفي فم الذهب بل ان أساقفة الغرب كما قلنا كانوا لا يزالون يعتبرون فم الذهب الاسقف الشرعي للقسطنطينية ولذلك طلبوا ان يعقد مجمع لفحص دعواه فى مدينة واقعة على حدود المملكتين.غير ان خصوم فم الذهب كانوا لا يزالون أقوياء وعندما رأوا كل هذه المداخلات التي من شأنها استرجاع فم الذهب سعوا جهدهم لينفوه إلى مكان ابعد حتى ينقطع حبل الرجاء من رجوعه فنفوه إلى جهة (بيتيوس) الفقراء وكان ما كان من امر اتعابه وموته كما ذكر في الفصل السابق .

(٢)

(الاحتفال بدفن بقاياه)

بعد مضي ٣١ سنة لموت فم الذهب نقلت عظامه الى القسطنطينية فقوبلت هناك بقاياه البالية بجناز يفوق في فخره كل عظمة واجلال وقد كتب المؤرخ الكنسي الشهير ثيودوريت فقال «قد اجتمع جم غفير وشعب كبير من جميع المؤمنين وانتشروا في القوارب وازدحم سطح البحر بانواع المراكب واناروا مشاعل الانوار فكانت كالاقمار ولو ان بوغاز البوسفور كان كقطعة من نور

ولكن مدينة القسطنطينية كأنها افتكرت في راعيها و بطريركها وواعظها وما حصل له وكيف عاد اليها بهذه الحالة بعد البعاد فاكتأب منها الفؤاد وخيم الحزن على ربوعها وتذكرت ما حل به من الظلم والاهانة والاستبداد

أما الامبراطور ثيودوسيوس الصغير ابن افدوكسيا الذي تولى بعد موت أبيه اركاديوس فانه ما وصل تابوت عظام البطريرك الى ميناء القسطنطينية حتى قام هذا الامبراطور لمقابلته والاحتفال به وما رآه حتى القى بنفسه عليه وصار يمرغ على النعش خديه ويقبله من عند قدميه وتذكر وهو يذرف الدموع السخينة على ما اقترفه والداه في حقه واضطهادهما ونفيهما له وتعذيبهما له بكثرة الاسفار. وكان من خلفه رجال دولته وعظماء مملكته وتبعهم سكان القسطنطينية جميعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم محتفلين بتابوته إلى ان شيعوه الى كنيسة الرسل حيث دفنوه بكل اعتبار بين مدافن بطاركة القسطنطينية الاولين ومقابر ملوكها السابقين

نعم اكرموه ! قتلوه ثم اكرموه ! واحتفلوا بدفن بقايا الشخص الذي اهانوه ! اعترفوا بصلاحه وتقواه ، بل بعظمته وسجاياه ، نعم عظموه ومجدوه وبجلوه ، حتى كادوا يعبدونه ، الا أن الوقت قد فات وكما يقول المثل «لات ساعة مندم » لان الندم لا يعوض عن الخطايا ، « درهم وقاية خير من قنطار علاج » كما أن درهم محبة مدة الحياة خير من قنطار اكرام بعد الممات

وعلى كل حال لم يزل اسم يوحنا فم الذهب مصحوباً بالاكرام على ممر الايام ، في كل زمان ومكان ، مهما توالت العصور ، وتعاقبت الدهور ، ومما هو جدير بالالتفات ان دانتي الشاعر الايطالي الشهير عند ما وصف الفردوس

جعل فم الذهب بين بطلين آخرين شبيهين به هما ناثان الذي وبخ الملك داود على ذنبه العظيم والأسقف انسلموس الذي وبخ وليم الاحمر ملك انكلترا على خطيته ! فما انسب فكر دانتي لان الثلاثة « تكلموا بشهادات الرب قدام ملوك ولم يخزوا » . حقاً ان ذكر الصديق يدوم الى الأبد

(٣)

﴿ ما تعلمه من تاريخ حياته ﴾

ان حياة فم الذهب جديرة بان تسمى « سلسلة مواعظ » لما فيها من الفوائد العملية والفضائل الدينية ولذلك وجب على كل امرىء أن يطالعها بامعان لانها خير مثال لاحسن الاعمال وأن فيها عبرة للمعتبرين ولهذا لم نرد أن ندونها من باب الفكاهة أو من سبيل كتابة السير بل يلاحظ القارىء أننا استخرجنا من كل حادثة تعليماً موافقاً حتى لا يخرج بدون جدوى : واننا نلخص الآن التعاليم الآتية :—

(١) جدير بالوالدين في الايام الحالية أن يقتدوا بانثوسا أم فم الذهب في تثقيف أولادهم على مبادىء الفضيلة والتقوى فيشبوا رجالاً يخدمون بلادهم بدلاً من أن يهملوهم للمربيات حيث يخرجون مجردين من الآداب المقدسة عطلا من مكارم الاخلاق حتى ضاقت فسحات البلاد عن احتمال ما ينتج عن موبقاتهم ومعاصيهم التي يقترفونها كل يوم ولا رادع

(٢) على الوالدين ان يربوا أولادهم بغرس كتاب الله وأصول الدين في افئدتهم لانه أعظم واق من الشرور الكبرى كما قال الرسول بولس « كل

الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر لكي يكون انسان الله كاملاً متأهباً لكل عمل صالح » (٢ تي ١٦:٣ و ١٧) .

(٣) ومما نتعلمه من هذه الترجمة ان هذه الدنيا ليست داراً نتنعم فيها ونلعب بل هي مقر المصائب ومركز النوائب ومن أراد ان يعيش فيها كاملاً لا يتيسر له ذلك ما لم يدخل في بحر الاحزان ويلج نيران الآلام مما يكرهنا في شهوات العالم ويجعلنا ان نبتعد عن زخارفه وأباطيله التي هي أصل الويل ومنبع البلاء .

(٤) اننا إذا رأينا عيباً في أحد وجب علينا ان نؤنبه حتى يقلع عنه مهما أبغضنا الناس في ذلك . إن رجال الدين في أيامنا أصبحوا يخشون تأنيب الناس على خطاياهم (ولا سيا الكبراء منهم) خوفاً من قطع رواتبهم ولكن روح التقوى الصحيحة تقتضي توبيخ الشرير ورجل الاثم حتى يتوب ويرجع الى الرب فيرحمه والى إلهنا لانه يكثر الغفران (تث ٢٠:١٩ ومز ١٦:٥٠ — ٢٣ واشعياء ٧:٥٥) وقال الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس « الذين يخطئون وبخهم قدام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف » (١ تي ٢٠:٥) هكذا كان بطل المسيحية فم الذهب شجاعاً في تنفيذ القوانين الالهية ينفذها على الملك كما على الخادم ، على الغني كما على الفقير ، لم يكن يخشى في تأييد الحق لومة لائم ولم يكن يخاف ان يجهر بالصدق مهما صدع ذلك آذان الناس ومهما قاسى في سبيل ذلك مر الآلام وكبير العذاب . « وأتكلم بشهاداتك قدام ملوك ولا أخزى » (مزمور ٤٦:١١٩) .

لقد كان ممكناً له ان يوفر على نفسه مؤونة تلك الاتعاب،أتعاب الاهانات والطرد والنفي ... الخ إذا تملق للملكة والرؤساء ووافقهم على رغائبهم ولكنه فضل ان يذل لاجل المسيح على ان يكون له تمتع وقتي بالسرور. هكذا نحن فلنحترم الصدق ولنتحل بالشجاعة ولنقل الحق ولو كان مراً .

(٥) على كل «خادم الدين» ان يتمثل بيوحنا فم الذهب في إطعام شعبه القوت المشبع أي شرح كتاب الله. « كن أميناً الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة» (رؤ ٢ : ١٠) هذاما نراه ممثلاً بأجمل معانيه في تاريخ ذهبي الفم حيث ظل رافعاً لواء سيره على رؤوس الاشهاد محتملا كل نوع من الآلام لأجله كوكيل امين حتى الموت غير ان كل تلك الاتعاب تضمحل وتنقشع وتتبدد من مجرد نظرة واحدة للجالس على العرش الابيض. (اللهم اجعلنا امناء لك في هذه الحياة ولو كلفتنا هذه الامانة الموت المر حتى نحظى باكليلك المجيد)

(٤)

﴿ مختارات من اقواله ﴾

(آثار فم الذهب) سبق معنا ان فم الذهب دعي بهذا اللقب نسبة لفصاحته ولأقواله التي كانت تنسكب من فيه كالجواهر الكريمة وها نحن ذاكرون لكم بعض تلك الجواهر حتى تعرفوا انه كان اسماً على مسمى .

قال يوبخ الذين يجعلون خلاص نفوسهم متوقفاً على عيشة التقشف والتصوف :

« ليست الغاية من التوبة لبس المسوح فقط وحبس أنفسنا والعيشة في

الخفاء بل علينا ان نشعر شعوراً عميقاً بالخطية وان نقيس الطريق الذي يفصلنا عن السماء » . اه

وقال للذين أحبوا المعجزات والآيات الموهومة :

«ان السيد المسيح لا يقول لنا في يوم الدين قدأجريتم كثيراً من الاعمال العجيبة باسمي بل يقول كنت جوعاناً فأطعمتموني وعطشاناً فسقيتموني » اه

وبينما كان ذات يوم يحض القوم على ملازمة الصلاة قال له احد الحاضرين « كيف اصلي وأنا مضطر ان اكون دائماً في المحكمة أو في غيرها من الاماكن الجمهورية »؟ فأجابه الواعظ «أينما كنت فلك مذبح قريب اليك وذبيحة لتقدمها عليه لانك أنت نفسك كاهن ومذبح وذبيحة. ليست عبادتنا خارجية نظير عبادة اليهود. بل اينما كنت يمكنك ان تبني لك مذبحاً . يكفي ان تشعر كل الشعور باحتياجك الى مساعدته تعالى. واذا كنت غير قادر ان تحني ركبتيك فاقرع على صدرك أو ارفع يديك الى السماء . المرأة وهي جالسة عند مغزلها تستطيع ان ترفع نفسها الى الله وان تصرخ بقلبها اليه تعالى والتاجر في السوق يستطيع ان يفحص ذاته وان يصلي بحرارة والصانع في مكان صناعته يمكنه ان يصلي ايضاً ان الله يطلب فقط ان يكون القلب حاراً والرغبة شديدة »

ولفم الذهب اقوال في الاسفار الالهية « حرية ان تكتب بالتبر لا بالحبر » . قال مرة للذين أهملوا مطالعتها :

« مطالعة الكتاب المقدس واجبة عليكم ايها العوام اكثر من وجوبها على القسوس لانكم دائماً واقفون في وسط ميدان الحرب ومعرضون للخطر

والسهام فمن ثم كنتم انتم في حاجة اكثر الى هذا العلاج الالهي » واذ زعم بعضهم انهم لا يستطيعون فهم الاسفار الالهية لكونهم من العوام اجابهم فم الذهب «ان النعمة الالهية شاءت ان يكتب هذه الاسفار رعاة وصيادو سمك وعشارون وصانعو خيام وجهلاء لكي لا يحتج من كان نظيركم بهذه الحجة الباطلة بل لكي يستفيد من مطالعتها الصانع والعبد وأشد الناس جهلا. الذين قبلوا نعمة الروح القدس يفهمون الامور المرسومة في الكتب الالهية وهم لا يفتخرون بعلمهم كما يفعل بعض العلماء بل يجدون خلاصهم فيها ويرشدون الآخرين الى السماء. قال مار بولس « أتيت اليكم ايها الاخوة ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله » ورب قائل ان في الكتاب فصولا صعبة تحتاج الى الايضاح والشرح فأنا اخبركم ما يجب عليكم ان تعملوه. اقرأوا قصة كلها أو سفراً كله من الكتاب المقدس دفعة واحدة واطبعوا على ذاكرتكم ما استطعتم فهمه ثم راجعوا قراءة ما تعذر عليكم فهمه مرة أو مرتين واذا لم يتسنَّ لكم فهمه فاطلبوا إلى أخ اكثر منكم علماً ان يساعدكم. كونوا غيورين في ذلك فيراكم الله سبحانه وتعالى واذا كان لا يستطيع أحد ان يقدم لكم الشرح الذي تطلبونه فالرب نفسه يقدمه لكم. اذكروا ما حدث للخصي الحبشي ان الرب رأى رغبته في فهم ما كان يقرأه فأرسل اليه فيلبس. نعم ان فيلبس ليس موجوداً الآن ولكن الروح الذي حرك فيلبس لا يزال حاضراً. لا ريب ان الجهل بالاسفار الالهية ينتج كل فساد في التعليم والآداب »

« إذا كنتم تتلون الأسفار الالهية يومياً فأناشدكم أن تقصدوا الوثنيين وتحاجوهم لأن الحق قوي. ولكن اذا كنتم مهملين الأسفار الالهية اخاف

انكم إذا نزلتم إلى الميدان وأنتم غير متسلحين تقهرون في الحال لأن لا أحد أضعف، ممن ليس له سيف الروح »

« اني أعلم ان البعض عندهم الكتب المقدسة غير انهم يتصرفون كأنهم غير حاصلين عليها لانهم يقفلون عليها باعتناء وحرص في صناديق جميلة. هم يجهدون أنفسهم ولكن قصارى مرغوبهم ليست قراءة الكتب المقدسة وفهمها بل حفظ الرق المكتوبة عليه لاماً مصقولا لكي تكون الحروف واضحة حسنة. ليست غايتهم في الحصول على الكتاب المقدس مطالعته لخلاص نفوسهم بل إظهار غناهم وسعة معيشتهم. اني أسمع البعض يفتخرون بحصولهم على توراة مكتوبة بحروف ذهبية. ما هي الفائدة من ذلك يا ترى؟ اعلموا ان الكتاب انما أعطي لنا لكي نكتبه على صفحات قلوبنا ».

وقال له بعضهم مرة انهم يرغبون في قراءة كلمة الله ولكن أوقاتهم لا تسمح لهم بذلك فأجاب:

«يا للعار الذي تجلبونه على أنفسكم. هل أنتم مرتبكون في الأمور الأرضية الى حد لا تجدون عنده فرصة لتنظروا في ما هو جوهري لكم. دعواكم هذه باطلة. وعندي شهود يبكتونكم. اجتماعاتكم مع اصحابكم وتقاطركم على المسرح وغيره من محلات الملاهي والجموع الذين تختلطون بهم وتتصرفون معهم أياماً في مشاهدة المحاضرات ونحوها — جميع هؤلاء يشهدون ان الذي يعوزكم هوا ليس الوقت كما تدعون ».

وقال مرة مجاوباً من احتج بفقره لعدم اشترائه الكتاب :

« أليس عندكم كل ما تحتاجون اليه في صناعتكم. أفليس من الجنون ان تحتجوا بفقركم بالنظر الى ما هو عظيم الاهمية . عند ما يصيب الجوع الصياغ أو غيرهم من الصناع يؤثرون احتمال كل مشقة على فقدان أدوات معيشتهم . وربما استعاروها من الآخرين لانهم إذا كانوا حاصلين عليها تساعدهم صناعتهم على وفاء ديونهم . لكن نظيرهم . فائدة البيكار أو المطرقة عندهم كفائدة كتابات الرسل والانبياء وجميع الاسفار الموحى بها عندنا . انظروا كيف ان الصناع يتمكنون بأدواتهم من إجراء عملهم حسب إرادتهم . هكذا يجب علينا نحن ان نقوم عقولنا عند ميلها ونصححها عند فسادها. اننا نستطيع ان نعمل أفضل منهم كثيراً . فانهم انما يعملون الشكل لا المادة . لا يستطيعون مثلاً ان يحولوا الحديد أو الخزف إلى ذهب أو فضة. ولكن أنت أيها المسيحي قادر أن تحول آنية خشب إلى آنية ذهب فلا نتأخرنّ في تحصيل الكتب المقدسة ولا نصرفنّ أوقاتنا في حشد الذهب بل في جمع كلمات الله » .

وقال يحض القوم على الشعور بقوة الكتاب المقدس الالهية :

«عندما يجلس الناس في يوم شديد الحر حول ينبوع ألا يلتذون بتنسم الهواء الرطب الصادر عنه؟ واذا سبب لهم الحر ضيقاً فحالا يغطسون أيديهم في الماء البارد ويسكبون منه على وجوههم بغية دفع الحرارة المحرقة عنهم . واذا اشتد عليهم العطش تراهم يجرعون من ذلك الماء الحي.فلينهج هذا المنهج كل من كان جالساً عند ينبوع الكتاب المقدس.واذا دهمه لهيب الشهوة الجسدية

فليغط نفسه في ينبوعها الحي لتطفأ النار. واذا شعر بالانفعال النفساني يغلي في داخل قلبه فيسكب عليه فقط بعض قطرات من هذا الينبوع وحينئذ يرى ان العاصف يهدأ في الحال . مطالعة الكتاب المقدس تنشلنا من الافكار الشريرة كما من النار . ألا ترى ان داود النبي العظيم يجعل مقابلة بين التأمل في شريعة الرب وبين الشجرة المغروسة على مجاري المياه. هذه الشجرة لكثرة شربها الماء لا يضرها شيء ولا تخاف من حرارة الشمس المحرقة أو من نشوفه الهواء لان الارض اذا رويت من الماء قاومت الحرارة الخارجة. هكذا النفس التي تقبل نداء الروح تتغلب على كل تغيرات الاحوال وعندما تصيب القلب كل المصائب والرزايا تقاومها لانها تجد في الاسفار الالهية تعزية كافية شافية لكل حزن » .

ومما قاله دليلاً على شعوره ببطلان العالم هذه الكلمات :

« ان سمو المجد العالمي والحصول على الصولة وحضور أحسن أصحابنا لا تستطيع ان تمنحنا تعزية أشبه بالتعزية التي تمنحنا اياها الكتب المقدسة لان جميع هذه الامور زمنية ولا تستطيع ان تمنحنا إلا لذة زمنية. اما درس كلمة الله فهو الشركة معه تعالى واذا كان الحق سبحانه يعزي المحزون فمن يقدر أن يجعله منحنياً » .

ان فم الذهب سعى ليجعل لكلمة الله المقام الاول بين المؤمنين في الخدمة الدينية فقال :—

« ان ههنا قوماً يحتقرون الله سبحانه وتعالى فيحاولون ادخال النشائد

العالمية في عبادة الله عوضاً عن الترنيمات المقدسة . فتروهم يصرخون أصواتاً غريبة ويتمايلون من جهة إلى أخرى كما يفعل المتوهون فتارة يمدون ايديهم إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ويضربون اقدامهم ويحركون اجسادهم مدخلين إلى بيت الله ما تعلموه من الرقاصين وممثلي الروايات إلا انهم بذلك يظهرون التشويش على نفوسهم » اه

وقال يدحض تعليم الاريوسيين :

« لا بد من التسليم بأن المسيح هو اله حق والا فما الباعث على ذكر الالقاب الوضيعة له في كتاب. عندما يعزو المسيح إلى نفسه الاكرام الالهي لا يمكننا ان نرى سبباً لذلك إلا انه أراد أن يظهر مجد لاهوته للانسان. الرجل العظيم يمكنه ان يتكلم عن نفسه باتضاع دون ان يخطئه احد لكون ذلك تنازلاً منه ولكن اذا كان شخص في حال وضيعة يرفع نفسه فلا بد من نسبة عمله إلى الكبرياء والافتخار. فاذا كان ابن الله دون الآب لا يتسنى له استعمال عبارات بها يجعل نفسه مساوياً لله لان ذلك تملق باطل. ولكنه اذا كان مساوياً لله واستعمل عبارات التواضع بالنظر إلى ذاته لا يليق بنا مطلقاً اتخاذ هذه العبارات دليلاً على ضعته بل يجب ان تحملنا على العجب من عظم تنازله » اه

وقال في وجوب اتحاد المسيح بالكنيسة :

« يجب ان نبني على المسيح ونعتصم به كأساس البناء العظيم يجب أن نلتصق به التصاق الغصن بالكرمة . لا يسوغ أن نجعل شيئاً بيننا وبين

المسيح اذا حال شيء بيننا وبينه هلكنا لا محال . لا يثبت البناء إلا باتحاده مع الاساس فاذا انفك الاتحاد سقط البناء في الحال. المسيح هو الرأس ونحن الجسد. المسيح هو الطريق ونحن المسافرون. المسيح هو الهيكل ونحن المصلون. المسيح هو الحياة ونحن الاحياء به . اذا قطع الغصن وانفصل عن الكرمة ولو قليلا تلف . لا يحيا الغصن ما لم يمتص الغذاء من الاصل » اه

وقال في وصف عمل الفداء العظيم :

« من لا يتعجب عند رؤيته محبة الله الفائقة الوصف وعلمه انه بذل ابنه الوحيد ليموت عن الجاحدين وليس ليموت فقط بل ليتألم كأعظم المجرمين ، فكل ما احتمله المسيح احتمله حباً بكم — ليحميكم ويرفع عنكم سلطة الخطية ويهدم صروح الشيطان ويكسر قوة الموت ويرفع اللعنة ويفتح باب السماء . فالآن لم يبق شيء على الارض يحزننا لا سخرية ولا عار ولا دعاو باطلة ولا اضطهادات ولا موت ولا شر آخر يقع علينا لأن يسوع قد اختبرها جميعها وشارككم فيها وقهرها كلها وهو يأمركم ان لا تخافوا شيئاً بعد » اه

وأرسل مرة رسالة تعزية الى الشماسة اوليمباس يقول فيها :

« انني معتقد كل الاعتقاد في مراحم ذاك الماسك بيده دفة حركة العالم وسكونه ويديرها لا بيد بشرية بل بارادته العلوية ومهارته الالهية واحكامه الحكمية فيتغلب بها على شديد العواصف عند قيام الرياح القواصف . انه سبحانه وتعالى قادر على منحي السعادة والهناء وأوقات الراحة والعزاء فلست أقطع الرجاء مهما اشتد عليّ الخطب والعناء لانه وان كان سبحانه لم يسرع في

انقاذ المتضايقين من مصائبهم فما ذلك إلا لحكمته الغير المدركة لنا نحن البشر لأنه لما تشتد أزمة الامور وتتعاظم الشرور وتحيق بالانسان كل المصائب والاحزان حتى متى قطع الآمال وايقن بعدم تحويل الحال عندئذ يدركه الاله بتدابيره العجيبة واعماله المدهشة وآياته الغريبة مظهر قوته مستعملا قدرته فينقلب الحال وتزول الاهوال فتتحول الشرور إلى سرور والاتراح إلى افراح» اه

وقال لها مرة أخرى عن هذه الكلمات :

«اذا كنت حاصلة على هذه الحياة الداخلية فيك فلا بد ان تزداد على الدوام وتكون سعادتك أعظم فأعظم. ولكن اذا كنت تنصرفين عن طلب هذه النعمة الحقيقية بسعيك في طلب الشبه فقط والصورة الخارجية والبر الذاتي وفي المحافظة على العوائد البشرية تشعرين لا محالة بأن كل شيء باطل وتفقدين ما عندك . لان كل من له يعطى فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه » اه

وقال في الكتب المقدسة والكنيسة :

« طالعوا الكتب المقدسة لانها تشفي كل حزن وتهلك الشر الذي فيكم وتجعل الصلاح يتغلب بحيث تكون نفوسكم في راحة رغماً عن كل عواصف هذه الحياة . اذا هاجت أمواج البحر فلا تكون سفينتكم في خطر الغرق لأن الكتب المقدسة دفتها . الكنيسة هي ملجأ ولكنني لا اعني بالكنيسة الحوائط أو السقف أو المذبح أو الهيكل بل أعني بها الحياة التي في المسيحي

اي ايمانه بمواعيد الله ومحبته للمسيح . هذان الامران يترتب عليهما خلاصه » اه

وقال ايضا يوبخ الذين يهملونها :

« الى اين تفرون يا من تهملون الكتب المقدسة وتجدفون على الروح القدس المتكلم ؟ وماذا تفعلونه في تلك الساعة الرهيبة عند ما يجلس الديان العادل على منبر القضاء وتفتح الاسفار الكتب التي انتم تزدرون بها؟ سوف يدرككم الويل والهلاك وتسترحمون الاله الذي اغظتموه والروح الذي جدفتم عليه حيث لا رحمة وتستغيثون بابنه الوحيد الذي سفك دمه لاجلكم حيث ليس من يغيثكم . ارجعوا وتوبوا فيقبلكم الله محب البشر » اه

وقال مرة عن نفسه

« اني اسكب الدموع عندما اراني في كرسي فوق كراسي الآخرين وعندما يقدم لي احترام اكثر من غيري . ما أعظم الشر الذي نشأ عن هذه الأشياء لكنيسة الله » اه

ولما رجع من منفاه الأول جعل يفرغ الوسع لاكتساب سامعيه للملكوت الله بتبشيره اياهم بانجيل السلام فقال :

«لا تزعموا انكم هالكون وان لا رجاء لكم وانكم اخطأتم ولا تعرفون ماذا تفعلون . ان لكم طبيباً أقوى من مرضكم يستطيع اخضاعه — طبيباً يستطيع ابراءكم في لمحة، طبيباً يشفي كل اسقامكم . هو الذي ابدعكم من العدم فاذا كان قد خلقكم أفلا يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك هكذا ؟ هو القادر

ان يرجع طبيعتكم التي مع كونها معدومة لا تزال باقية . لا يمكنكم ان تعرفوا كيفية وجودكم ولا كيف تتطهرون من الخطية. عندما توضع النار تحت الشوك ألا تحرقه في الحال ؟ فارادة الله تحرق خطايانا وتلاشيها من اصولها وتجعل الخاطىء كمن لا خطية له. لا تقولوا كيف يحدث ذلك ولا تتبصروا في الطريق التي يتم بها بل آمنوا بالمعجزة

ورب قائل قد ارتكبت خطايا باهظة كثيرة واتيت المعاصي اكثر من غيري في العالم فالجواب الذبيحة عظيمة وكافية لان ترفع اثمك . عليك اولا ان تعترف بخطاياك للرب لكي يبررك وانت تعترف بعظم شرك . هذا بداءة توبتك. المرأة التي جاءت إلى المسيح لم تفعل خلاف هذا العمل الا ترى انها سكبت دموع الحزن وانها ذهبت إلى المخلص الذي هو مصدر المغفرة ! انظر ماذا عملت المرأة الكنعانية ، اسمع قولها «ارحمني» فكأنها قالت ليس لي استحقاق البتة ولا رجاء في سيرتي ولذلك التجىء الى رحمتك وآتي اليك حيث لا دينونة فيك ولانك تمنح الخلاص مجاناً . لم تذهب هذه المرأة إلى يعقوب الرسول ولا صلت الى يوحنا أو الى بطرس بل مرت بجميعهم دون توقف وكأنها قالت لست في حاجة الى وسيط بل أقصد الينبوع بقلب منكسر متشجع واذا كان الرب قد حضر من السماء واتخذ طبيعتنا البشرية فذلك لكي نتكلم معه رأساً . ان الكاروبيم في العلاء يرتعدون في حضرته اما الخاطىء على الارض فيمكنه ان يتكلم معه ويقول «ارحمني» كلمة واحدة صادرة عن قلب متخشع تمنح صاحبها اوقيانوس خلاص وسلام » .

وفي طريقه الى المنفى مر بناسك ورع حبس نفسه في زاوية لم يخرج منها

فكان يراسل أصحابه الذين أتوا اليه بطعامه . فقال مخاطباً اياه «قم واشتغل في كرم الرب فان ذلك أفضل عند الله من عيشة الكسل هذه . أخرج من زاويتك واذهب إلى انطاكية وساعد في المناداة بالانجيل في فينيقية » اه

أما أشهر كتبه مع المنسوبة له زوراً من العظات والمقالات فهي ٣٥٠ مقالة في وصايا مختلفة و ٦٢٠ مقالة في الكتب المقدسة من العهد الجديد والقديم ونحو ٢٥٠ رسالة مع نبذ عديدة في الرهبنة[1] وطبع له بالعربية مواعظ كثيرة جداً منها كتاب « الدر المنتخب » وهو يحتوي على ٢٤ مقالة يقال ان الاخيرة منها هي آخر مقالاته عند ما أزمع ان ينتقل من هذا العالم ثم كتاب مواعظ آخر مطبوع في بيروت . ثم كتاب « المواعظ الذهبية » المستعمل في الكنيسة القبطية للآحاد والاعياد على الاناجيل المقدسة عشية وباكر وانجيل القداس . . . الخ .

(كتاب الكهنوت)

هو الكتاب المعروف الذي وضعه فم الذهب ليسترضي به صديقه ثاوفيلس كما مر بنا وقد تحدى فيه اظهار شرف الخدمة الكهنوتية ووصفه موسهم بقوله « ولفم الذهب مقالة في الكهنوت في ستة كتب» والافضل كتاب في الكهنوت في ست مقالات وكلها دائرة حول استعطاف باسيليوس واظهار

(١) ان جزءاً كثيراً من هذه الرسائل كتبها في طريق منفاه لانه كان يبعث رسائله ومؤلفاته في كل مكان حتى قيل انه كتب مائتي رسالة وقد ترجمت جميعها الى كل لغات المسيحيين شرقاً وغرباً اه

شرف الخدمة وان فم الذهب لم يستعف كبراً منه وان الخدمة الدينية للمختارين وليست للساعين وانها خدمة متعبة تحتاج إلى أقوياء وان خطايا الشعوب تلحق الكهنة وطائلتهم عليهم الخ ما هنالك من هذا القبيل ولما سمع باسيليوس ذلك طلب من فم الذهب ان يساعده في أموره بقوله له « انت قادر على تثقيفي وتهذيبي فالاولى ان تشاركني في تصرفاتي ولا تبتعد عني » فشجعه فم الذهب وقال له اني متى وجدت فرصة احضر لديك حالا معزياً ومسلياً ولا ادع شيئاً من جهدي الا فعلته . قال فم الذهب في الختام .

فلما سمع ذلك زاد بكاه وطفر ماضياً فأما أنا فاعتنقته وقبلت رأسه وشيعته مخاطباً له باحتمال ما يعرض له بشجاعة وشهامة وقلت له: اني واثق بالسيد المسيح الذي استدعاك لخدمته وقدمك لرعاية خاص غنمه انك ستكسب من هذه الخدمة له دالة ووجاهة تقتدر بها ان تقبلنا في مسكنك الدهري وقد شارفنا ولالهنا المجد ابداً والى دهر الداهرين . آمين

هذا هو فم الذهب بطل المسيحية في القرن الرابع ومصباحها المنير في تلك الايام وتلك هي أعماله الجليلة . أجل لم يمت قتلا كسيوسينوس وكبريانوس وغيرهما من مشاهير المسيحيين في العصور الغابرة ولا طرح الى الاسود في المسرح غير انه كان شهيداً نظيرهم تماماً لان ما عملته الاسود لاولئك عمله الاشرار له ولكن قلبه كان مملوءاً من السلام والرجاء في وسط آلامه العظيمة وكان يفرح لعلمه انه ذاهب لملاقاة الرب «الذي وان لم يره ولكنه أحبه ذلك وان كان لا يراه الآن ولكن آمن به فابتهج بفرح لا ينطق به ومجيد»

صلاة مار يوحنا فم الذهب

التي استعملتها الكنيسة الاسقفية منذ قرون عديدة على مدار السنة كلها لصلاة الصباح وصلاة المساء ايضاً : —

« اللهم الضابط الكل الذي وهبت لنا نعمة في هذا الوقت لنقدم لك باتحاد أدعيتنا العامة ووعدت بانه اذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمك تستجيب طلباتهم فكمل اللهم الآن ابتغاء عبادك والتماسهم على ما هو أصلح لهم ومانحاً لنا في هذا العالم معرفة حقك وفي العالم الآتي الحياة الدائمة . آمين » .

(م)